

# الإِسْلَامُ حَيَاةٌ وَمَقَاوِدُ

عمر الفاروق عبد الله

سلسلة ورقات طابفة

رقم ٥ | ٢٠١٢



# الإِسْلَامُ حَيَاةٌ وَمَقَاوِدُ



# الإِسْلَامُ حَيَاةٌ وَمَقَاوِدُ



عمر الفاروق عبد الله  
ترجمة: محمد سامر الست

سلسلة ورقات طابة / رقم ٥ / ٢٠١٢  
ISSN: ٢٠٧٧-٨٤٦٥

الإسلام حياة ومقاصد  
ISBN: ٢-٦٥٤-١٦-٩٩٤٨-٩٧٨

© ٢٠١٢، عمر الفاروق عبد الله  
مؤسسة طابة  
ص.ب. ١٠٧٤٤٢  
أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة  
www.tabahfoundation.org

جميع الحقوق محفوظة. يمنع إعادة إنتاج أو توزيع أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة دون موافقة خطية صريحة من المؤلف، إلا في حالات الاقتباس المختصر مع الاستشهاد الدقيق والكامل في المقالات النقدية أو المراجعات.

نُشر إصدارٌ سابق لهذه الورقة بعنوان "Living Islam with Purpose" في العدد ٧/١ من مجلة جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس المختصة بشريعة الإسلام والشرق الأدنى (*UCLA Journal of Islamic and Near Eastern Law*، ٢٠٠٧-٢٠٠٨).

هذه الوثيقة ترجمة لنصّ كُتِب في الأصل باللغة الإنكليزية، وإذا ما أثير أي تساؤل حول قصد المؤلف من عبارة ما، فربما يرغب القارئ في الاطلاع على النسخة الأصلية الإنكليزية.

صورة الغلاف © حقوق الطبع لمصوّرات بيتر ساندرز

## المحتوى

١	المقدمة
	المبادئ العملية
٦	الأول: الوثوق بالعقل
١٣	الثاني: احترام الاختلاف
٢٧	الثالث: تأكيد أهمية فروض الكفاية
٣٦	الرابع: ترتيب الأولويات
٤٣	الخامس: الأخذ بالقواعد الكلية
٧٢	خاتمة





# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه والتابعين ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

سُئِلَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ خِيَارِ النَّاسِ، فَقَالَ: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا»<sup>(١)</sup>. ومن مفهوم هذا الحديث أن الإسلام يوجب الاعتقاد والفهم كليهما لاستخراج الخير الإنساني الجوهري، حتى عند خيار الناس. ومهما يمكن أن يكون الخير الفطري عند المسلمين كبيراً، فليس بمقدورهم أن يدركوا ما كَمُنَّ من الخير فيهم باعتبارهم أشخاصاً أو أفراداً ضمن مجتمعاتهم إلا من خلال الفهم الكافي لدينهم. وإن الحاجة إلى فهم عميق لدين الإسلام من أجل تحقيق الإجابة والإلتقان تنطبق بوضوح على المسلمين في أمريكا، إذ لديهم إمكانية استثنائية من حيث إنهم أذكياء، ومجتهدون، وواعدون على نحو فريد؛ ومع ذلك، فهم مثل معادن الذهب والفضة غير المكتشفة، يبقى مورد نجاحهم وفلاحهم إلى حد كبير غير مستغل

١ صحيح البخاري (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠)، ٢/٦٩٠، رقم: ٣٢٣٤؛  
وصحيح مسلم، ت: خليل مأمون شحا (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ٢٠٠٥)، ١١٥٨،  
رقم: ٦٤٠١؛ ومسند الإمام أحمد (بيروت: دار الفكر، ط ١، ١٩٩١)، ٣/٣٤٤، رقم:  
٩٠٩.

## الإسلام حياة ومقاصد

بشكل ملائم بسبب درايتهم غير الكافية بشأن دينهم وموارده وكنوزه وتراثه الغني<sup>(٢)</sup>.

لا يغفل أغلب المسلمين الأمريكيين عن الحاجة إلى فهم أعمق للإسلام من أجل تنمية الفرد والمجتمع، وهم لا يفتقرون إلى الإرادة لاكتسابه. وما يبدو مفقوداً هو الإطار العملي لتسهيل اكتساب هذا العمق في الفهم ومن ثمّ استغلاله. وإن هذه الورقة تركز على «خمسة مبادئ عملية» من شأنها أن توفر هذا الإطار، وهي:

- الوثوق بالعقل
- احترام الاختلاف
- تأكيد أهمية فروض الكفاية
- ترتيب الأولويات
- الأخذ بالقواعد الكلية

إنّ هذه المبادئ العملية الخمسة هي إرشادات إسلامية عريقة ضاربة في القَدَم، كلّ منها يستند استناداً مكيناً إلى القرآن والسنة ومؤيّد بإجماع علماء المسلمين. وقد وصف ابن راهويه، وهو من علماء الحديث المشهورين ومن أصحاب الإمام أحمد بن حنبل المقرّبين، القواعد الكلية الفقهية - المبدأ العمليّ الخامس في هذه الورقة - بأنّها «مواقف تُوصّل إليها بالاستدلال العقلي اعتماداً

٢ المسلمون الأمريكيون عموماً مثقفون جيداً ومجدّون كثيراً. فهم، وفقاً لكلّ فردٍ منهم، يُعدّون أحد أكثر المجتمعات المسلمة تعليماً وازدهاراً في العالم؛ فنسبة كبيرة منهم حاصلون على شهادات جامعية وهذه النسبة أعلى بكثير من أقرانهم من بين عموم الأمريكيين؛ ولدى المسلمين نسبة توظيف وعمل عالية في شتى المهن تقريباً، من سائقي أجرة ومالكي بقالات إلى أطباء ومهندسين ومحامين. ويعدّ دخلهم المتوسط عالياً نسبياً مما يجعلهم ضمن أكثر شرائح المجتمع الأمريكي ثراءً. انظر بول باريت، الإسلام الأمريكي (نيويورك: فآر وستراوس وغيراوس، ٢٠٠٧)، ٩-١٠.

قارن التقديرات الأكثر تحفظاً لاستطلاع مركز بيو للأبحاث: <http://people>

.press.org/reports/display.php3?ReportID=239

## ورقات طابئة

على أقوال النبي ﷺ العامة المجملة<sup>(٣)</sup>. وينطبق هذا الوصف على حد سواء على المبادئ العملية الأربعة الأخرى المذكورة؛ وكلّ منها يشكّل حقيقة كليّة متأصلة في مجمل القرآن والأحاديث النبوية بمجموعها.

وليس من قبيل المبالغة القول بأن المبادئ العملية الخمسة المبيّنة في هذه الورقة من شأنها أن تُجسّد الحكمة وتستوفي الإحساس العالي بالتعاليم النبوية. وهي تولّد التوازن والاعتدال بينما تبث في النفس فهماً عملياً وإرشاداً مُدرَكًا. وبالتشديد على قيم جوهرية ومبادئ كليّة، تشكّل هذه المبادئ العملية جسراً بين الإسلام والمثُل والقيم الموجودة في الثقافات والديانات الأخرى. والمسلمون الذين يفهمونها يمكنهم الحديث عن دينهم بترابط منطقي في أي وضع كان؛ ويمكنهم أن يجعلوا أنفسهم وثيقي الصلة بواقع البيئات الثقافية المتنوّعة خصوصاً تلك التي في الغرب، وأن يضعوا قواعد لوجود إسلامي محليّ حيويّ أينما حلّوا. ومن الضروري تأكيد ما هو مفهوم بالبديهة: فهذه المبادئ العملية الخمسة لا تشكّل كلّ شيء يحتاج المسلم أن يعرفه عن الإسلام. وهي ليست بديلة عن دراسة العقيدة والفقه والتزكية الإسلامية. فما تقدّمه إنما هو قواعد عامة لفهم التعاليم الدينية الأوسع وتطبيقها بحكمة. يقول العالم الرباني الشهير عبد الكريم الجيلي: «العلم العملي هو الحكمة التي بها يهندي الحكيم إلى الانتفاع بعلمه»<sup>(٤)</sup>. وهذه المبادئ الخمسة أمثلة على العلم العملي الأساسي، وهي تزوّد المسلمين بمهارة ضرورية معدّة للاستفادة من أشكال المعرفة الأخرى على نحو فعّال. وإنّ كلاً من هذه المبادئ العملية الخمسة يعدّ من الأهمية البالغة بمكان، بيد أن القارئ لو كان له أن يعود بفكرة واحدة فقط من هذه الورقة، فينبغي أن تكون كالآتي:

٣ سوزان سيكتورسكي، "Sumah in the Responses of Ishāq ibn Rāhawayh" (السنة في أجوبة إسحاق بن راهويه)، في مؤلّف لبرنارد ج. وايس (محرر) *Studies in Islamic Legal Theory* (دراسات في علم أصول الفقه الإسلامي) (لايدن، برل، ٢٠٠٢)، ٧٠.

٤ عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل (القاهرة: مطبعة الحلبي، ١٩٧٠)، ١٢.

## الإسلام حياة ومقاصد

الإسلام ينبغي أن يُدرك بالفهم وتستسيغه العقول، ولكن لتحقيق ذلك يتطلب أتباعاً فطناء ذوي فهم سليم.

وفي حين أنّ هذه الورقة كُتبت والمسلمون الأمريكيون في البال على وجه الخصوص، إلا أنّ مبادئ العملية الخمسة تناسب المسلمين في أماكن أخرى، خصوصاً المسلمين في كندا وبريطانيا وأوروبا الغربية. فهي تعود إلى تراث جماعي غني؛ وهي ملائمة للمسلمين جميعهم وليس للعلماء فقط. وكما نوه الجيلي أنّها بإشارته إلى الاستعمال الحكيم للعلم العملي، فإنّ تطبيق مبادئ عملية مثل تلك هو أمانة، وينبغي تعهدها بحكمة واستقامة، الأمر الذي ينسحب على أنواع المعرفة برمتها.

وبسبب فائدة هذه المبادئ العملية الخمسة في فهم الإسلام، ينبغي أن تُكوّن عنصرًا أساسيًا في الفهم الإسلامي. يقول ابن عطاء الله، الفقيه والعالم الرباني الشهير: «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته»<sup>(٥)</sup>. فالوجهة التي تنطلق الأمور منها تعكس على الأرجح الحالة التي تنتهي عليها. والبداية الحسنة تعدّ بمستقبل مشرق. والأساس المكين يقوم عليه بناء قوي متين. وهذه المبادئ الخمسة تعطي المجتمع المسلم الأمريكي موقعًا ممتازًا لبداية مستقبل واعد؛ وينبغي أن تشكّل أحد العناصر الأساسية للتعليم الإسلامي على الأصعدة كافة. ومع أنّ عرض هذه الكليات قد يبدو إلى حدّ ما تعاملًا مع أفكار تجريدية، إلا أنّها ليست عويصة الفهم، وبمقدور المربّين والمعلّمين أن يجعلوها سهلة الوصول إلى أطراف الناس بطرق مناسبة.

يعرض الإسلام منظومةً - قد تُربك أحيانًا - من مجموعات خماسية: الأركان الخمسة<sup>(٦)</sup>، والصلوات الخمس، والأنواع الخمسة للحكم

٥ أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية والماناجة الإلهية (دمشق: المطبعة الهاشمية، د.ت)، ٦٧.

٦ الأركان الخمسة هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

## ورقات طابئة

التكليفية<sup>(٧)</sup>، ومقاصد الشرع الأساسية الخمسة، والقواعد الفقهية الكلية الخمسة. ولقد عقدتُ الأمور باختيار خمسة مبادئ عملية؛ إلا أن مجموعتين فقط من المجموعات الأخرى تتطلبان الانتباه في هذه الورقة، وهي المقاصد الأساسية الخمسة للشريعة الإسلامية، وقواعدها الكلية الخمسة. ولسهولة المراجعة، فإن مقاصد الشريعة الخمسة الكبرى هي حفظ كل من:

١. الدين
٢. النفس
٣. العقل
٤. النسل (النسب)
٥. المال

والقواعد الكلية الخمسة هي:

١. الأمور بمقاصدها
٢. اليقين لا يُزال بالشك
٣. الضرر يُزال
٤. المشقة تجلب التيسير
٥. العادة مُحْكَمَةٌ

٧ الأنواع الخمسة للحكم التكليفية: الفرض والمندوب والمباح والمكروه والحرام؛ وهي تعكس فوارق السلوكيات الإسلامية؛ ويمكن تقسيمها إلى متقابلين واضحين تكتنفهما ظلال رمادية متباينة. المتقابلان هما المحرّم والواجب، وبقية الأحكام الثلاثة تشكّل درجات متباينة من القوة والضعف من حيث التكليف. فالمحرّم صاراً على نحو جازم، منكرٌ تكليفاً، ويلزم تركه أبداً. ويقابله الفرض وهو حسن على نحو جازم، ملزم تكليفاً، ويجب فعله أبداً. وبالنسبة إلى الأصناف الثلاثة الهامشية ففعل أي منها جائز بالرغم من أن مزاياها التكليفية تختلف بشكل كبير. والمكروه ينبغي عدم فعله، مع أنه ليس خطأً ولا مذمومًا بشكل جازم، وعليه فيمكن فعله دون التعرّض للإثم أو استحقاق لوم. والمباح حيادي يفتقر إلى التمييز التكليفية، ويمكن فعله أو عدم فعله حسب اختيار المرء دون استحقاق مدح أو لوم. والمندوب حسنٌ محمود، ينبغي للمرء فعله ويستحق المدح على فعله، على أن عدم فعل المندوب لا يعرّض للإثم أو اللوم.

## الإسلام حياة ومقاصد

تشكّل القواعد الكلية الخمسة الجزء الأكبر والتركيز الأساسي في هذه الورقة. وعلى القارئ من أجل إدراك الفائدة منها أن يضع في ذهنه أنها ليست إرشادات نافعة فحسب، بل هي تجسّد روح الدين الأساسية. وفي نظر علماء المسلمين التقليديين، فإن هذه القواعد تُكوّن إجمالاً موجزاً لكل شيء يمثله الإسلام. وفي فهم القواعد الكلية الخمسة فهمٌ لجوهر الإسلام في خمس مجلٍ قصيرة. يقول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»<sup>(٨)</sup>. وإنني أكتب هذه الورقة على أمل أن تؤدي نصيحة. وهي تعكس فهمي وتفسيري للإرث الإسلامي. وقد انتقيت هذه المبادئ الخمسة من بين مبادئ أخرى كثيرة، مثل تكريم العلم، وتأكيد أهمية الكرامة الإنسانية، والالتزام بالعدالة الاجتماعية؛ واخترت هذه المبادئ الخمسة المخصصة بسبب فاعليتها العملية وصلتها المباشرة بالمجتمع المسلم الأمريكي؛ والمبادئ العملية الأخرى الضرورية للإسلام يمكن أن تؤدي الغرض نفسه أيضاً أو حتى بشكل أفضل. هذه الورقة تسعى إلى استجلاء أرضية جديدة؛ وهي تقدّم منظوراً هادفاً، وتستحثّ بحثاً إبداعياً.

### المبدأ العملي الأول

### الوثوق بالعقل

إن كلاً من المبادئ التي يجري بحثها في هذه الورقة تقوم دليلاً على سلطان العقل في الإسلام. يتبوأ العقل مكانةً جوهرية الرؤية العالمية الشاملة للإسلام. وقد وهب الله البشر الكرامة، وتعدّد المقدرّة العقلية والفكرية إحدى القواعد الأساسية لتمييز البشر الفريد عن سائر الكائنات. وإنّ النظام المنطقي للكون يجعله ضمن نطاق

٨ صحيح البخاري، ١٧/١، رقم: ٥٨؛ وصحيح مسلم (٢٠٠٥)، ٨٥، رقم: ١٩٤؛ ومصادر أخرى معتمدة للحديث.

## ورقات طابئة

الإدراك العقلي الإنساني، ومحوّله من عالم ذي ظواهر عشوائية إلى دلالة رائعة على الله وهدفٍ للتأمل والاستكشاف العلمي.

إن حماية قوة التفكير المنطقي وحفظ هذه القوة وجني ثمارها يعدّ من بين المقاصد الأساسية وأعظم فروض الكفاية في الشريعة الإسلامية. والتكليف هو أول شرط أساسي للممارسة الإسلامية الواجبة، ولا يكتسب صلاحيته الشرعية أبدًا في حال غياب القوة العقلية. ولأن المعاقين عقليًا والمجانين والأطفال يفتقرون إلى المقدرة على التفكير المنطقي وعلى الاستيعاب الكامل للحقائق الكونية، فهم غير مكلفين أمام الله تعالى وليسوا ملزمين بإطاعة أوامره. والقرآن الكريم يشير مرارًا إلى ميزة العقل ويعتبره منطًا أساسيًا للهداية. وهذه الآيات تنبئ بأن العقل يفضي إلى الخير والعافية والسعادة الأبدية، بينما يؤدي إهمال العقل إلى البائسة والخسران:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة، ٢٤٢)

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (المؤمنون، ٨٠)

﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس، ١٠٠)

وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُعْجَبَنَّكُمْ إِسْلَامُ امْرِئٍ حَتَّى تَعْلَمُوا عُقْدَةَ عَقْلِهِ»<sup>(٩)</sup>.

ويقدر الإمام الغزالي - أحد أجلّ العلماء الأفاضل في التاريخ الإسلامي -

المكانة الرفيعة للعقل بأنها لا تقبل الجدل، فيقول:

اعلم أن شرف العقل مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره، لا سيّما

وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم

٩ البيهقي، شعب الإيمان، ت: محمد السعيد زغلول (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٠)، ج ٤، باب في تعدد نعم الله عز وجل وشكرها، فصل في فضل العقل، رقم: ٤٦٤٢.

## الإسلام حياة ومقاصد

ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منه مجرى الشجرة من الشجرة،  
والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو  
وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟ أو كيف يستراب فيه<sup>(١١)</sup>؟

وفي التراث الإسلامي، الدين بلا عقل كارثة، والإصغاء إلى صوت العقل  
واجب. والآداب الإسلامية تضع العقل في طليعة الصفات الضرورية لمكارم  
الأخلاق<sup>(١٢)</sup>. وبغياب العقل فإن الشخصية الصالحة مثل بناء مستقر في الظاهر  
أساسه ضعيف.

تشكّل سلطة العقل أساس الفكر الإسلامي الكلامي والشرعي. وإلى وقت  
قريب كان أغلب الأكاديميين الغربيين ينظرون إلى مذهب المعتزلة على أنه المثال  
الوحيد على العقلانية الإسلامية. وفي الحقيقة، إن مدرسة الأشاعرة والمدرسة  
الماتريدية - النديتين لهذه المدرسة، واللتين تُكوّنان المعتقد السنّي القويم السائد -  
لا تقلان عقلانية عنها، بل لا تفتأ تأملاتهما الفكرية تبدي على نحو متناغم أصالةً  
وعمقاً فكرياً<sup>(١٣)</sup>. يعتبر العقل النفعي (البراغماتي) في التراث الفقهي الإسلامي

١٠ محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ٤ مجلدات (دمشق: مكتبة عبد الوكيل الدروبي،  
د.ت) ٧٣/١.

١١ رتب علي بن محمد البسامي صفات عشرة لمكارم الأخلاق هي: (١) العقل (٢) الدين  
(٣) العلم (٤) الحلم (٥) الجود (٦) الصدق (٧) البر (٨) الصبر (٩) الشكر (١٠) اللين.

١٢ «المذهب العقلي» في العقيدة الإسلامية يشير إلى أية منهجية تجعل العقل الوسيلة الأساسية  
للوصول إلى جوهر حقيقة الوحي. وقد كانت مذاهب المعتزلة والأشاعرة والماتريدية  
كلها عقلانية بهذا المعنى، واعتمدت على العقل في تفسير الوحي، خصوصاً عندما  
دبّ النزاع فيما بينهم. فكلّ من هذه المدارس أبدت تماسكاً فكرياً ومعرفة واسعة. وفي  
بعض الاعتبارات، كانت عقلانية المذهب المعتزلي أقل أصالةً وأكثر حُرْفيةً من المذهبين  
الأخرين. وفي الجدل المعروف حول أزلية الخطاب الإلهي والرؤية السعيدة المباركة، أصرّ  
المعتزلة على التعريفات الحُرْفية للخطاب والرؤية كالظواهر الطبيعية التي يطلق عليها  
البشر تلك الأسماء. أما الأشاعرة والماتريدية من ناحية أخرى فقد ذهبوا إلى أن تقييد هذه  
الكلمات وأمثالها في اللغة الدينية بمعانيها الحُرْفية عند الكلام عن الله كوّنت قياساً فاسداً  
بين عالمين متباينين تماماً: بشري وإلهي، مخلوق وخالق، شهود وغيب، حيث لا يصلح  
تطبيق أي قياس معروف. كما ذهب الأشاعرة والماتريدية إلى أن اللغة الدينية تحتمل معاني  
مختلفة في سياقات غيبية مختلفة. وبيننا مدرسة المعتزلة ومدرسة الأشاعرة تعدّان جدليتين



## ورقات طابئة

مركزياً. حتى المذهب الفقهي الحنبلي - المعروف بالتزامه ظاهر النصوص - يُعدّ مذهباً نفعياً إلى حدّ كبير، ويسلم بدورٍ ذي بال للعقل في العقيدة والشريعة. وفي الواقع انقسم هذا المذهب من بدايته إلى جناحين، أحدهما اعتمد بثقل أكبر من الآخر على العقل. ويتسم ابن تيميّة - أحد أكبر علماء الحنابلة - وتلميذه ابن القيم إلى الجناح العقلاني للمذهب. وهناك مذهب فقهي آخر اعتمد ظاهر النصوص بإفراط هو المذهب الظاهري الذي رفض اعتماد العقل في العقيدة والشريعة، إلا أنه لم يكسب قط أتباعاً يذكر، فاندثر باكراً، وأحد أسباب ذلك كان رفض أصحاب المذهب اعتماد العقل.

لم يكن حقيقةً الصراع بين الدين والعلم معروفاً في التاريخ الفكري الإسلامي. وإن التناغم بين الاثنين تجسّد مثلاً في حياة وحرفة عالم الكيمياء البارع جابر بن حيّان الذي عاش في القرن التاسع إذ أنكر الخيمياء [الكيمياء القديمة] بوصفها علماً مستمرّ الصلاحية، ووضع القواعد التجريبية لعلم الكيمياء. وقد أكسبه إخلاصه وتفانيه في دينه رتبةً روحيةً إذ عُرفَ بالصوفي). بدأ ابن حيّان أحد مؤلفاته الشهيرة حول علم الكيمياء (كتاب السبعين) بهذه الكلمات: «لا ريبَ أنّ ذكر الله أشرف وأجلّ وأعظم مما يأتي ذكره». وافتتح كتابه ببحث طويل

---

إلى حد كبير، تتميّز العقيدة الماتريدية بتناسق منهجيتها واستقلالها الفكري. وكثيراً ما يجادل الأكاديميون الغربيون بأن اندثار مذهب المعتزلة من بين أهل السنة (وهو مستمر بكونه مذهباً عقدياً أساسياً لدى الشيعة) قد قيّد دور العقل بشدّة في الشريعة الإسلامية. وينمو هذا المفهوم من الخلط بين النزعة العقلانية العقدية في أخلاقيات المعتزلة والنمط - المختلف أساساً عنها - للاستدلال العقلي النفعي (البراغماتي) في الشريعة الإسلامية، الذي لم يتأثر إلى حد كبير بالمنظرات العقدية الكبيرة، والذي استمر في كامل قوته بعد المعتزلة بمدة طويلة. ولم يكن للمعتزلة أي تأثير يذكر على تطوّر القانون الإسلامي الوضعي. وإن أغلب أتباع هذه المدرسة كانوا يتبعون المذهب الحنفي في الفقه، ولم يروا تناقضاً بين مواقفهم العقدية والفقهية. انظر عمر الفاروق عبد الله، "Theological Dimensions of Islamic Law" (الأبعاد العقدية للشريعة الإسلامية) في *The Cambridge Companion to Islamic Theology* (دليل كمبردج في العقيدة الإسلامية)، ت.ج. ونتر (محرر)، (كمبردج: مطبعة جامعة كمبردج، ٢٠٠٨).

## الإسلام حياة ومقاصد

حول واجب تزكية النفس من آفة العجب ومن عيوب الباطن الأخرى باعتباره شرطاً أساسياً لمواصلة التحصيل العلمي<sup>(١٣)</sup>.

لقد قدّم الإسلام نخبة من علماء الدين الذين برعوا أيضًا في العلوم العقلية والتجريبية. فالعالم الأندلسي والقاضي والفقيه ابن رشد ترك أثرًا في الفقه الإسلامي لا يزال محسوسًا حتى يومنا هذا. وإن شروحه لأعمال أرسطو أثرت في مسار التاريخ الفكري الأوروبي. وقد ألّف أكثر من خمسين كتابًا تراوحت من مجالات تخصصه الأساسية في الفقه والفلسفة إلى الطب وعلم النفس وعلم الحيوان وعلم الفلك. وقيل إن آراءه الطبيّة كانت مرتقبة بلهفة في الأندلس بقدر ما كانت كذلك تفسيراته الفقهية<sup>(١٤)</sup>. وأيضًا، كان فخر الدين الرازي، مفسّر القرآن ذائع الصيت والإمام في علم الكلام وأصول الفقه يفوق علماء عصره في العلوم العقلية والتجريبية، وصنّف كتاب (محصل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين)، لخص فيه الفكر الفلسفي والكلامي والعلمي لمفكرين قدماء ومتقدّمين بارزين<sup>(١٥)</sup>.

يقسّم الفكر الشرعي الإسلامي أحكام الشريعة المنزّلة إلى صنفين وفقًا لصلتها بالعقل. الصنف الأول توقيفي. ويمكن بلوغ أحكامه بالتأمّل الفكري، ولكنها لا تتوقّف على العلل المدركة والمقاصد المشروطة، وعلى ذلك فلا يمكن تغييرها. ويجب اتّباع الأحكام التوقيفية تمامًا كما أنزلت أولاً، وهي غير قابلة للاجتهاد. فتخصيص رمضان بأنه شهر الصوم أمر توقيفي. أمّا الصنف الثاني فهو المعلّل. ولأحكامه علل ومقاصد ماديّة، ممّا يجعلها سهلة لبلوغ العقل، وهي مادة الاجتهاد غير المنقطع. فالزواج وأغلب الأحكام المتعلقة به معلّلة.

إنّ أكثر ما تتعلّق به الأحكام التوقيفية في الشريعة الإسلامية هي تفاصيل

١٣ جابر بن حيّان، كتاب السبعين (فرانكفورت: معهد تاريخ العلوم العربية، ١٩٦٨).

١٤ خير الدين الزركلي، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ٨ مجلدات (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٢)، ٥/٣١٨.

١٥ الزركلي، الأعلام، ٦/٣١٣.

## ورقات طابئة

العبادات، فهي بالمقارنة مع الأحكام المعللة تشكّل جزءاً أساسياً - مع أنه صغير نسبياً - من الشريعة. وإنّ سلطة الأحكام المعللة وهيمتها في الشريعة تعطي مرونة ووثاقه صلة بالأزمة المتغيّرة والأمكنة المتنوعة. ولأن الأحكام المعللة تشكّل الغالبية الساحقة من الفقه الإسلامي، فإن كلّ حكم من أحكام الشريعة يُفترض أنه معلّل إلى أن يثبت العكس. والقاعدة الفقهية ذات الصلة تقول: «الأصل التعليل». فلا داعي لإثبات أن حكماً فقهياً له علّة، إذ يقع عبء الإثبات على وجه الحصر على كاهل أي شخص يدّعي أن حكماً من الأحكام ليس له علّة وأنه توقيفي.

تقدّم هيئات معينة من الصلوات المفروضة توضيحاً لأحكام توقيفية ومعلّلة تأتي مجتمعة. وهذه الصلوات الخمس تنقسم إلى نوعين: جهرية وسريّة. وإن تخصيص أيّ من الصلوات سريّة وأي منها تُصلّى بصوت مسموع أمر توقيفي لا يتوقّف على وجود سبب أو علّة. إلا أنه توجد علّة وراء رفع الإمام صوته في الصلوات الجهرية: فهو مستحسن حتى يكون بمقدور الذين يصلّون خلفه أن يسمعوا قراءته. وباستصحاب هذه العلّة فإنه أمر مشروع أن يُكبّر صوت الإمام بطرق مختلفة بحيث يكون بوسع أكبر عدد من المصلّين سماع تلاوته. وفي الماضي، صمّم المسلمون أبنية معمارية مبتكرة من ناحية توسيع مدّ الصوت لهذه الغاية؛ أمّا اليوم فإنهم يستخدمون مكبّرات الصوت.

ويدلّ المنطق العقلائي الجوهري الأصيل للشريعة المنزلة على النبي ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الشريعة من أجل البشر، ولم يجعل البشر من أجل الشريعة. وحيث إن غالبية الأحكام الفقهية الإسلامية لها علل مُدرّكة فهي تقتضي دراسة متمنّنة مستمرة وتفسيراً شرعياً لضمان كون تطبيقها متناسكاً مع عللها<sup>(١٦)</sup>. ولكلّ نصّ سياقه، ويجب على الباحث الديني أن يفهمها كليهما؛ إذ

١٦ عمر الفاروق عبد الله، "Innovation and Creativity in Islam" (البدعة والإبداع في الإسلام): <http://www.nawawi.org/downloads/article4.pdf>.

## الإسلام حياة ومقاصد

لا يمكن تطبيق الشريعة آلياً أو استظهاراً. واعترافاً ببعد النظر العقلي والحكمة المطلوبة من أجل التطبيق الملائم للشريعة في أزمنة وأمكنة مختلفة، يُعرف علماء الشريعة الأكفاء بالفقهاء. والمهارات ذاتها ليست مطلوبة لحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف؛ وأولئك الذين برعوا في هذين الفنين أُطلق عليهم «حَفَاطٌ» احتراماً لقدرهم.

يفخر المسلمون بأن الإسلام دين العقل، وأنه أنتج حضارة علمية اعتمدت على الرعاية والتهديب المتناغم للعلوم الشرعية والعقلية والتجريبية. ومع ذلك فإن كثيراً من المسلمين اليوم - في نطاق التطبيق - يبدو أنهم فقدوا موهبة الحدس السليم، والثقة باستئنان العقل والوثوق به. وهم غالباً ممزقون من غير ضرورة بين ما يعرفونه بالفطرة بأنه صحيح، وبين تنافسهم مع مزاعم مستبدة توضع باسم الإسلام، وهي لا تُعقل حتى أنها يمكن أن تنازع القيم الإنسانية الأساسية. وكما أظهر لاري بوستن في الدراسة التي أجراها على المُهتدين الغربيين إلى الإسلام، فإن غالبية أولئك المهتدين يذكرون أنّهم ما يجذب إلى دين الإسلام توافقه مع العقل وترابطه مع البداهة العقلية<sup>(١٧)</sup>. غير أنهم يجب أيضاً أن يحترسوا من الوقوع ضحايا للتعاليم التي تُخالف حدسهم، تلك التي تلغي العقلانية ذاتها التي جذبتهم إلى الدين في البداية.

وفي نهاية الأمر، إن الإسلام يجب أن يُعقل ويُدرَك جيداً. وكما يفهم من حديث النبي ﷺ الذي مرّ ذكره، فإن كفاءة المسلم في الإسلام لا يمكن الوثوق بها قبل اختبار عقله؛ والأمر ذاته ينطبق على المجتمعات المسلمة والأفكار والآراء والمواقف التي يتوصلون إليها؛ إذ إن أي مدخل إلى الإسلام لا يرضى الاعتماد

١٧ إن أغلب الأسباب التي يتكرر ذكرها لاعتناق الإسلام هي: (١) سهولة المعتقد، (٢) العقلانية، (٣) التوحيد الخالص، (٤) إعطاء أهمية للحياة الدنيا، (٥) عدم وجود كهنوت. انظر لاري بوستن، الدعوة الإسلامية في الغرب (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٢)، ١٧٦-١٧٨.

## ورقات طابئة

الحر والصريح للعقل ولا يحترمه فهو غير وافٍ ولا يمكنه أن يضع أسسًا لمستقبل قابل للنمو.

### المبدأ العملي الثاني

## احترام الاختلاف

يتحدّث الإسلام بصوت متجانس فقط عن عقائد أصول الدين والأفعال التكليفية. وفي أمور أخرى يتحدّث بأصوات متعددة ويقرّ بشرعية الاختلاف والتأويلات المتعارضة. ومع أن التاريخ الإسلامي مرّ بفترات كان التسامح فيها تارة أقوى وتارة أضعف، إلا أن الاعتراف بالأراء المتخالفة يُعدّ جزءًا مركزيًا من تراثه. وقد تمرّس العلماء المسلمون في أدب الاختلاف، مما مكّنهم في المقام الأول من الاستفادة من وجهات النظر المختلفة، والعيش بلطفٍ وتهذيبٍ مع أولئك الذين يحملونها.

ويُعدّ أدب الاختلاف عنصرًا طبيعيًا في المجتمعات السليمة؛ وهو ضروري للكرامة الإنسانية والتطوّر الفكري؛ وهو يغدّي ثقافة التسامح التي تتيح المجال للانفتاح على طرق جديدة للتفكير، وعلى مجتمعات أخرى لديها وجهات نظر مختلفة عن العالم. وقد كان انفتاح الإسلام تاريخيًا على أفكار جديدة، وغالبًا متعارضة، حلقة ضرورية من حلقات نجاحه الثقافي والفكري. ويقع هذا الاحترام للاختلاف في أصل قابلية الإسلام لتعزيز خطاب دولي في نطاق الأفكار، الأمر الذي من شأنه أن يمكّن المسلمين ليصبحوا وارثين للتراث الفكرية العظيمة التي تعود للماضي.

إن حقّ الاختلاف ووجوب احترامه لهما رسوخ في الطريقة التي يتناول بها منهجُ البحث العلمي عند العلماء المسلمين تأويلَ النصوص. ويتفق العلماء على أن النصوص الدينية على درجات مختلفة من القطعية، وغالبًا ما تفضي إلى معانٍ

## الإسلام حياة ومقاصد

متعدّدة. والمنهج العلمي الإسلامي قسّم النصوص الدينية إلى صنفين: قطعيّ وظنيّ.

ولكي يكون النصّ الديني قطعياً لا بدّ أن يجتاز اختبارين، الأول يتعلّق بصحة النقل، والثاني يتعلّق بعدد المعاني التي يحملها. وفي المنهج العلمي الإسلامي القرآن بمجمله كاملاً قطعيّ الثبوت. أمّا بالنسبة إلى الحديث النبوي، فإن له مستويات مختلفة من درجة الصحة التي يمكن التثبّت منها. ومن ثمّ فإن مسألة صحة النصّ تنطبق في الواقع فقط على الحديث النبوي؛ وإن الأحاديث التي تستوفي أعلى معايير التثبّت (الأحاديث الصحيحة) قطعية الصحة من حيث النقل، بالرغم من أنها ليست بالضرورة قطعية من حيث الدلالة. والأحاديث التي لها درجات أقل من التثبّت (الأحاديث الحسنة والضعيفة) ظنيّة من حيث النقل (ظنيّة الثبوت)؛ وهي يمكن أن تقدّم دليلاً شرعياً مؤيِّداً، إلا أنها لا يمكن أن تمثل برهاناً قطعياً بمفردها، مهما كان وضوح دلالاتها ظاهراً.

وعندما تثبت صحة نصّ ما تتعيّن الإجابة عن السؤال الذي يليه فيما يتعلّق بالدلالة. وتُعدّ المسألة الثانية من عدّة وجوه أهمّ من الأولى لأن أغلب الاختلاف بين المسلمين بشأن المسائل الدينية ينبي على التفسيرات المتشعبة لنصوص ثابتة الصحة؛ وهي تلك النصوص التي تشكّل المجال الأساسي للاختلاف الديني بين علماء الدين.

وإن النصوص القطعية الدلالة لا تحتلّ إلا تأويلاً واحداً. أمّا النصوص التي تحتلّ أكثر من تأويل معقول تسمّى ظنيّة الدلالة. وهذه النصوص لا يمكن منطقيّاً أن تقيّد بمعنى واحد، مع أنّ إحدى دلالاتها قد تبدو أقوى من الأخرى. والقاعدة الفقهية المناسبة في هذا المقام تقول: «لا حجّة مع الاحتمال»؛ ويبقى احتمال وجود حجّة مضادّة شرعية قائماً دائماً مع النصوص الظنيّة الدلالة.

إن الإيمان بوحدانية الله وباليوم الآخر وبتحريم قتل النفس مبنيّ على

## ورقات طابئة

نصوص قطعية الثبوت؛ وهي تُكوّن القواعد الأساسية للدين الإسلامي وهي مُلزِمة لجميع المسلمين في جميع الأحوال دون استثناء<sup>(١٨)</sup>. وسواء أكانت اللجنة تتألف من أربع أو سبع مراتب أم لا، فهي مسألة تعتمد على نصوص ظنيّة الثبوت؛ كما هو الحال بالنسبة إلى مسائل تتعلق بما إذا كان عدد الأنبياء ١٢٤,٠٠٠ أو ٢٢٤,٠٠٠ نبياً أو عدداً آخر غير معلوم من الأنبياء<sup>(١٩)</sup>. وبطريقة مشابهة، فإن مسألة كيف ينبغي أن يضع المسلم يديه في أثناء القيام في الصلاة تدور حول نصوص ظنيّة الثبوت.

إن العقائد والأعمال التي تستند إلى نصوص ظنيّة الثبوت يمكن أن يقال بأنّها لها مرتبة ثانوية؛ فهي لا يمكن أن تُكوّن العقائد والأعمال الأساسية التي يُلزم بقبولها المسلمون كافة. ومع ذلك فإن هذه العقائد والأعمال الثانوية ذات أهمية حيوية في الإسلام، ولا ينبغي أن ينظر إليها على أنها غير ثابتة أو غير صحيحة. فبالرغم من أنها تنتمي إلى ميدان الاختلاف الرسمي ولا يمكن فرضها على الآخرين، فهي تُكوّن عقائد وأعمالاً شرعية بالنسبة إلى تلك المذاهب والأفراد الذين قبلوها. وفي الأساس، يشكّل كلّ مذهب في الفقه الإسلامي منهجية فعّالة للوصول إلى نتائج صحيحة بخصوص مسائل ظنيّة الثبوت<sup>(٢٠)</sup>. والمذاهب الفقهية اتفقت على المسائل القطعية الثبوت، أمّا خلافاتها فإنّها تتعلّق بالمسائل الظنيّة

- ١٨ اعلم أن كون الإيمان بوحداية الله وباليوم الآخر وبتحريم القتل وبعقائد وأحكام أخرى عديدة قطعي الثبوت لا يعني ذلك أنها متساوية فيما بينها من حيث الأهمية العقدية. وذلك يعني أنه لا يمكن الارتياح بأن كلاً منها جزء ثابت من التعاليم القرآنية والنبوية، وهي بحد ذاتها يتعيّن الإقرار بشرعيتها من قبل أي امرئ يدعي الإيمان بالقرآن وبالنبي ﷺ.
- ١٩ تعتمد هذه الأرقام على أحاديث متعارضة ظنيّة الثبوت. يذكر أحدها أن عدد الأنبياء الذين تتأهم الله عبر التاريخ الإنساني ١٢٤,٠٠٠؛ ورواية أخرى تورّد عدد ٢٢٤,٠٠٠. ولأن العددين تخمينيان، يجوز للمسلم أن يقبل أحدهما أو أن يتجاهلهما كليهما.
- ٢٠ عمر الفاروق عبد الله، «الأئمة الأعلام ومذاهبهم»، ١٤ قرصاً مدجّماً (CD) (شيكاغو: مؤسسة النوي، ٢٠٠٤)؛ وأيضاً المؤلف نفسه، «مفهوم مالك للعمل في ضوء الرأي الفقهي المالكي»، مجلدان (أطروحة الدكتوراة، جامعة شيكاغو، ١٩٧٨)، ١/١٢١-٢٧٩.

## الإسلام حياة ومقاصد

الثبوت. ومع أن كلَّ مذهب فقهي يدّعي أنه مرجع موثوق في المسائل الظنيّة، إلاّ أنّه يعترف بحقوق الآخرين في الخلاف ولا يدّعي لنفسه المرجعية النهائية في غياب الدليل القطعي.

إنّ أهمّ الأصول في تعريف المنهج الإسلامي القويم، والبدعة، والتعصّب المذهبي، يرتبط بهذا التمييز بين العقائد والأعمال القطعية الثبوت (الأساسية) وظنيّة الثبوت (الثانوية). وكما أُشير إليه آنفاً، إن المحتوى التأسيسي للإسلام الذي يُلزم المسلمين كافة أن يسلموا به يجب أن يقتصر على العقائد والأعمال الأساسية التي تستند إلى الأدلة القطعية الثبوت. وبينما يصح للأشخاص والمذاهب أن تتخذ لنفسها مكوّنات من الدين ظنيّة الثبوت، فإنه لا يجوز اعتبارها ملزمةً للأمة الإسلامية بأسرها؛ وإلا كان ذلك من قبيل البدعة والتعصّب المذهبي. وإن الإصرار على مطالبة المسلمين بالتراجع عن عقائدهم وأعمالهم الخلافية الظنيّة الفرعية فقط لأن غيرهم من المسلمين يرونها غير صحيحة هو أيضاً غير مقبول بمعايير السلف. وبتعريف السلف بهذه الطريقة، فإنّ الانقسام بين ما هو قطعي الثبوت وما هو ظنيّ الثبوت يعطي مجالاً محمياً للخلاف والخطاب بين المسلمين. وهو يؤسس لحرية الاختلاف على أنها حق ديني أصيل ضروري، ويهوي بالمسلمين الذين ينكرون ذلك الحق إلى منزلة المبتدعين والمتعصبين المذهبيين الهامشية.

وعلى الرغم من أن منهج الفكر الإسلامي يقبل بالاختلاف حول المسائل الظنيّة، إلاّ أنّه ينبغي تأكيد أنّ الآراء المتعارضة يجب أن تلتزم بمعايير عالية ومنهجيات سليمة. وهذه الاختلافات ليست جديدة بالاحترام لمجرد أنها تمثل اختلافاً؛ إذ إنّ احترام الاختلاف لا يقتضي مراعاة الحجج الواهية الاعتباطية أو التي أساسها الجهل بالعلوم الإسلامية. بل احترام الاختلاف يعني رفض الاستبداد بالرأي؛ ولا يعني رفض المرجعية. ويجب أن تكون البراهين غير



## ورقات طابئة

القطعية موثوقة ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، فهي تحتاج إلى دليل عقلي ومنهجية صحيحة واستدلال قوي الحجة.

وفيما يأتي سأقدم بضعة أمثلة توضيحية لنصوص قطعية الثبوت وتأويلات شرعية. فإنّ نصوصاً كثيرة في القرآن والسنة تبدو للوهلة الأولى أنّها لا تحمل إلا دلالة واحدة فقط، ولكنها تفضي بعد تمعن أعمق إلى الانفتاح على تأويلات أخرى. وغالباً ما يتكلم مسلمون عن جهل بشأن مسائل التأويل وكأنهم لا يجيزون إلا رأياً واحداً، كمن دام حسبه دون أيّ مجالٍ لمباحثة إضافية.

في حديث آحاد ظنيّ الثبوت قال النبي ﷺ: «من أحيأ أرضاً ميتة فهي له». وقد قبل علماء الشريعة هذا الحديث على أنه صحيح النقل، واتفقوا على وضوح ألفاظه. ومع ذلك فهم يصنّفون الحديث باعتباره ظنيّ الثبوت. وإن الاختلاف حول مضامين الحديث يستند إلى اعتبار سياقه الأول، لا إلى مسائل النحو والمعاني. وقد تعددت وتنوّعت وظائف النبي ﷺ الخاصّة والعامة، فهو مشرّع عام، وحاكم ورئيس دولة، ورب أسرة، وصاحب صديق، وغير ذلك. وهناك أحاديث كثيرة لا يمكن فهمها بدقة إلا بإثبات سياقها الذي قيلت فيه، وهذا ما ينطبق عليه هذا الحديث.

وقد عدّ الإمام أبو حنيفة حديث «من أحيأ أرضاً ميتة فهي له» قيّداً تنفيذياً وضعه النبي ﷺ باعتباره حاكماً للمدينة المنورة. ومن ثمّ فالحديث مرتبط بأوضاع زراعية خاصة بالمدينة في زمن محدّد. والإمام أبو حنيفة لم ينكر شرعية ملكية أراضٍ مهجورة باستصلاحها وحرثها، كما هو المذكور في الحديث، ولكنه يرى - نظراً للسياق التنفيذي الأصلي للحديث - أن تطبيقه يحتاج إلى إذن رسمي لضمان مناسبه للتطبيق ضمن تنوع واسع للأحوال في أزمنة وأمكنة مختلفة.

ورأى الإمام مالك الرأي نفسه؛ فهو يشترط الإذن الحكومي للأراضي المرأحة القريبة التي تقع ضمن الأحزمة الخضراء المحيطة بقرى المسلمين

## الإسلام حياة ومقاصد

ومدّهم (حريم). وحيث إن هذه المساحات من الأراضي كان يمتلكها الناس، فقد استثنى الإمام مالك أي أرض تقع ضمنها من أن تُملك بالحرث بالرغم من أن هذه الأراضي كانت موصوفة بأنها مُراحة. ومع ذلك، لم يشترط الإمام مالك الحصول على إذن حكومي بالنسبة إلى الأراضي الواقعة خارج الأحزمة الخضراء. أما منهجية الإمام الشافعي فنطلق من الحجّة التي تسلّم بأن كلّ حديث يُعامل على أنه بيانٌ شرعيّ عام ما لم يثبت العكس من طريق مصدر نصيّ صريح آخر. وعلى ذلك فالإمام الشافعي يرى أن النبي ﷺ وضع البيان في الحديث بوصفه مشرّعاً عامّاً. ومن ثمّ فلا قيود بالنسبة إلى الإمام الشافعي تنطبق على امتلاك أرضٍ بإحيائها، ولا ضرورة لموافقة حكومية على ذلك<sup>(٢١)</sup>.

فقد اتفق الأئمة الثلاثة على صحّة الحديث نفسه، غير أنهم أولوه بثلاث طرق مختلفة ذات مغزى. وقراءة كلّ منهم لها أساس في دعوى صحتها، مع أن بعضها قد يكون أقوى حجة من الأخرى.

ويروي الحديث الثاني الظنيّ الثبوت أنّ أمّ أحد الصحابة طلبت منه أن يعتق جارية مسلمة بعد موتها. وإعتاق العبيد في الشريعة النبوية عمل تعبدي ومن أعمال الكفّارات. واختار الرجل أن يعتق جارية غير عربية بالنيابة عن أمّه، ولم يتأكّد له إن كانت مسلمة، فأحضرها إلى النبي ﷺ للتبّت من إيمانها. فسألها النبي ﷺ: «أين الله؟» فأومأت برأسها أو بسبّابتها نحو السماء. وبعد ذلك سألها النبي ﷺ: «من أنا؟» فأشارت بسبّابتها نحوه ثم وجهتها نحو السماء. فأكّد النبي ﷺ أنّها مسلمة، ثمّ أعتقت.

يستشهد بعض المسلمين بهذا الحديث باعتباره دليلاً قطعياً على أنّ الله له مكان مادّي في السماء. ويعدّ كلّ من المذهبين الاعتقاديين الإسلاميين السنّيّ والشيوعيّ مثل هذا الرأي بدعةً قريبةً من الكفر، لأنه مبنيٌّ على وهم ويتعارض

٢١ شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام (بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٥)، ٩٩، ١٠٩-١١١.

## ورقات طابئة

مع دليل قطعي. وعندما يُنظر بتأمل في هذا الحديث، إلى جانب روايات موازية للقصة نفسها، تتضح صفته الظنيّة غير القطعية من حيث الاحتجاج العقدي. تضيف رواية أخرى للحديث نفسه أن الفتاة كانت بكاء ولم تكن قادرة على الكلام بتأتًا، الأمر الذي يفسر إيماءاتها وميل النبي ﷺ إلى قبول هذه الإيماءات على أنها دليل إيمانها. ومن شأن ذلك أيضًا أن يوضح سبب عدم إمكانية تحقّق الصحابي من كونها مسلمة. وحيث إنّها لم تكن عربية، قد لا تكون على دراية جيدة باللغة العربية أو أنها لا تعرفها البتّة، ما من شأنه أن يعطي تفسيرًا بديلاً لطبيعة الحوار بينها وبين النبي ﷺ. وهناك رواية أخرى تقول إنّ النبي ﷺ لم يسألها: «أين الله؟» بل «من الله؟» ومع ذلك، فكلا التعبيرين في السؤال غريب، لأنّ النبي ﷺ كان من عادته أن يقول حين يسأل الناس عمّا إذا كانوا مسلمين: «هل تشهد أن لا إله إلا الله؟» وهناك رواية أخرى لا تدلّ على عدم قدرة الفتاة على الكلام، سألتها فيها النبي ﷺ السؤال المعتاد: «هل تشهدين أن لا إله إلا الله؟» فأجابت: «نعم» دون إيماء إلى الساء<sup>(٢٢)</sup>.

إن قصة هذه الفتاة صحيحة الثبوت ولكنها ظنيّة الدلالة. ومجرد أنها قد تكون بكاء أو لا تعرف العربية، يجعلها حالة استثنائية، ومن غير الممكن في الحالات الاستثنائية تأسيس قواعد اعتقادية أو شرعية. والحديث ليس له علاقة بتحديد مكان الله في السماء؛ غير أنه يُعدّ شهادة على أريحية النبي ﷺ تجاه قبول بيانات الإيمان.

ويتناول المثالان الآتيان الموقف الشرعي من الموسيقى التي تُعزف بالآلات ورسوم الصور ذات البعدين والثلاثة الأبعاد للأشياء الحيّة. وإنه من المألوف أن نسمع أنّ الإسلام يحرم كلا الأمرين على الإطلاق. ومع ذلك فهناك مواقف جديدة بالملاحظة تميزهما تحت قيود معيّنة، كما يدلّ المثالان الآتيان. وعلى كل

٢٢ عبد الكريم الرفاعي وآخرون، (شرح جوهرة التوحيد) للإمام العلامة الشيخ إبراهيم الباجوري (بدون مكان النشر: بدون اسم الناشر، ١٩٧٢)، ١٨٨-١٩٢.

## الإسلام حياة ومقاصد

حال، سواء كان حكم الشرع فيما يتعلّق بالموسيقى والصور يقضي بحرمتهما أم بجوازهما، فإن الحكم الخاصّ بكلّ منهما منوط بدلالات دليل ظنيّ. إن موقف الإسلام من كلتا المسألتين أنّ حكمهما ليس توقيفياً مثل شعائر العبادة، بل مبنيّ على العلة ولهما مقاصد ملموسة، مما يترك الحكم على منزلتهما الشرعية مفتوحاً للنقاش.

يذهب جمهور الفقهاء إلى تحريم الموسيقى، وهم يرون ذلك عمومًا على أساس أنّ من ديدنها أن يصاحبها شرب خمر ورقص ونساء وفجور، الأمر الذي غالبًا ما كان سائدًا في الثقافة الشرق أوسطية والجنوب آسيوية. ولكن كان هناك آراء مخالفة وحيهة بشأن الموسيقى عندما تؤدّى في أجواء أخرى. وقد كتب القاضي الأندلسي الشهير أبو بكر بن العربي والعلمان الفذّان ابن حزم وعبد الغني النابلسي آراءً فقهية دفاعًا عن الموسيقى. واستشهد عالمٌ مغربيّ معاصر - الكتّاني - بقول عشرين من الفقهاء الأصوليين المسلمين الذين كتبوا حول أنواع مختلفة من الآلات الموسيقية والسمع<sup>(٢٣)</sup>. وفي كثير من البلدان الإسلامية تستخدمُ مستشفياتٌ موسيقيين ومهرّجين وهوايات تعليمية لشفاء المرضى والمجانين سريريًا. وعلى العموم كانت مستشفيات المسلمين أوقافًا دينية تحت إشراف قضاة مسلمين قد شكّل سماحهم بالعلاج بالموسيقى والفكاهة والهواية ثبوتًا شرعيًا لكلّ منها<sup>(٢٤)</sup>.

٢٣ محمد عبد الحفي الكتّاني، نظام الحكومة النبوية المسماة بالتراتب الإدارية، مجلّدان (بيروت: دار الأرقم، د.ت) ٢/٧٨-٨٩.

٢٤ مرجعي بالنسبة إلى استخدام المهزّجين للعلاج العقلي والطبي هو الدكتور محمّد سراج، أستاذ الشريعة الإسلامية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. واستخدام الموسيقى للعلاج يرجع إلى القدماء، وقد توثق جيدًا في الحضارة الإسلامية. واعتقد المسلمون الأندلسيون أن بعض المقامات الموسيقية كان لها تأثير أكبر من غيرها في معالجة أمراض عقلية معيّنة. وقد زارت مؤسسة النووي متحفًا طبيًا إسلاميًا في تركيا خارج مدينة أدرنة عام ٢٠٠٤، وكان يحتوي على معرض حول استخدام الهوايات والموسيقى للعلاج في الطب الإسلامي التقليدي.

## ورقات طابئة

وبشكل مشابه، يؤيد أغلب علماء المسلمين تحريم رسم صور ذات بعدين أو ثلاثة للحيوانات والكائنات البشرية، وقد بنوا موقفهم على أحاديث عدّة استنبطوا منها عللاً مثل الحيلولة دون عبادة الأوثان ومنع البشر من مضاهاة قدرة الله الخالقة، وتجنّب الاهتمام الشديد بأمور هذه الدنيا الذي من شأن هذه الصور أن تطبعه في الذهن. ولكن، دون انتهاك هذه العلل، أجاز فقهاء أصوليون مسلمون معاصرون استخدام بطاقات هويّة عليها صورة، وسمحوا باستعمال نماذج صحيحة تشریحياً للجسم البشري لتدريس علم التشريح والطب والعلوم المتعلقة بهما.

وقد كان العالم المصري القرافي - الذي عاش في القرن الثالث عشر وكان واحداً من ألمع علماء أصول الفقه وأبرزهم في التاريخ الإسلامي - بارعاً في عدّة مهارات تخصصية وفنون معرفية؛ فقد عُرف بخبرته في بناء آلات فلكية وأجهزة ميكانيكية أخرى، ربطها بتمثيل متحرّكة ذات أبعاد ثلاثة. وكتب القرافي في كتابه «نفائس الأصول»، وهو تصنيف مختصر حول علم أصول الفقه، بأنه مرة صمّم شمعداناً للإعلام عن الوقت، يتغيّر لون الشمعة الأساسية فيه في كلّ ساعة، ومثبت فيه أسدٌ يتغيّر أيضاً لون عينيه من السواد الشديد إلى البياض الشديد، ثمّ إلى الحمرة الشديدة، في كلّ ساعة لهما لون، ويستمر في استخدام ألوان مختلفة إلى أن يطلع الفجر. فإذا طلع الفجر طلع تمثال شخص صغير (مؤدّن) على أعلى الشمعدان وأصبغ في أذنه، يشير إلى الأذان، وأن وقت الصلاة قد حان. وكان القرافي يتحرّس على عدم اكتشافه كيف يجعل تمثال الشخص الصغير ينادي فعلياً بالأذان للصلاة<sup>(٢٥)</sup>.

٢٥ الزركلي، الأعلام، ١/٩٤-٩٥؛ أحمد بن إدريس القرافي، نفائس الأصول في شرح المحصول، دراسة وتحقيق وتعليق عادل عبد الموجود وعلي معوض، ٩ مجلدات (مكّة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٩٩٧)، ١/٤٤١-٤٤٢.

## الإسلام حياة ومقاصد

كان الفن الإسلامي التقليدي فناً وظيفياً، فقد كان لا يفتأ يخدم غايات عملية. ويُرى هذا متمثلاً في الخط، وهندسة عمارة المساجد، والمدارس، والجسور، وصناعة السجّاد، والخزف، وغيرها. وكان شمعدان القرافي - كما يذكر هو - أيضاً عملياً من الناحية الفنيّة، معنياً بالقيام بدور ساعة منبّهة طوال الليل إلى الفجر؛ وجميع العناصر المرئية لساعة الأسد جرى حسابها لغرض كسر الرتابة التي تعتري المرء وإبقائه متيقظاً. ومع أنه لم يكن هناك أيّ شيء مخيف بخصوص تمثال الأسد وعينيه المتوهجتين بألوان مختلفة، فقد كان يمثّل إلى حدّ ما تلهية مسلّية تبدو أنها قد ألمحت إلى هذا المشهد: تخيّل لو أنّ أسداً مثل ذاك الأسد واقف في الغرفة، فهل يمكنك أن تنام؟ لم يكن الأسد والمؤدّن في شمعدان القرافي شيئين عابثين؛ لقد كان الغرض والمقصد منها مشابهاً للأغراض التي تستخدم لها حديثاً بطاقات الهوية التي عليها صورة ومجسمات الجسم البشري الصحيحة تشریحياً.

إن احترام الاختلاف يعني احترام الحقّ، والاعتراف بأنه غالباً ما يأخذ طرقاً مختلفة ويفضي إلى رؤى مخالفة للواقع. ولأن الاختلاف لا مقرّ منه في طلب العلم، فقد عدّ العلماء المسلمون تصنيف الآراء المتخالفة ودراستها شكلاً ضرورياً من أشكال التحصيل العلمي. وكان ابن عمر، الذي عدّ من بين أوسع أصحاب النبي ﷺ علماً، يُعرف على نطاق عريض بأنه أعطى قيمة كبيرة لمعرفته الواسعة بمسائل الخلاف؛ وكثيراً ما كان يقول بأنه لم يكن ليستبدل بتلك المعرفة أعلى ما في الأرض من متاع.

ويعارض تقبّل الاختلاف التشنّد والتصلّب في الرأي؛ ومن شأن الإمام بالتأويلات المتعارضة والآراء المختلفة أن يفضي إلى المرونة والنضج الفكري. ولمثل هذه الأسباب، يعتبر منهج البحث العلمي الإسلامي الاختلاف القائم على حجج عقلانية منطقية عطية إلهية ورحمة للبشرية. وعادة ما يشير علماء أصول الفقه إلى الحديث الضعيف سنداً ولكنه معروف على نطاق واسع:

## ورقات طابفة

«اختلاف أمتي رحمة»<sup>(٢٦)</sup>. وقد علّق على هذا الحديث الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، الذي اشتهر بتقواه واستقامته، قائلاً: «ما يسرنى أن أصحاب رسول الله لم يختلفوا، لو لم يختلفوا لم تكن رخصة في الدين». وذكر الخطّابي، وهو أحد أبرز علماء الحديث، أنّ نوع الاختلاف المذكور في الحديث هو ما يتعلّق بأحكام الشريعة الظنيّة؛ حيث يبيّن الخطّابي أنّ الآراء المتعارضة التي تنشأ من تلك المسائل هي رحمة من الله وكرامة للعلماء الذين يجدون إجابات لها<sup>(٢٧)</sup>. أمّا بالنسبة إلى الاجتهاد في المسائل الظنيّة، فإنّ المعتدّ في التراث الإسلامي أن الله تعالى يؤتي العلماء أجرًا على اجتهاداتهم المتخالفة وإن أخطؤوا. وكثيرًا ما يستشهد الفقهاء بالحديث القائِل: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وأخطأ فله أجرٌ واحد»<sup>(٢٨)</sup>.

٢٦ أصبح عادة عند بعض المسلمين أن يرفضوا صحة هذا الحديث وأحاديث أخرى على أساس أنها أحاديث ضعيفة. والحديث الضعيف ليس مكذوبًا بل هو ظنيّ الثبوت، إذ ليس بالإمكان التثبت من صحته. وهذا الحديث ينتمي إلى فئة الأحاديث الشائعة، لأن معظم المسلمين سمعوا به، وكثيرًا ما يشيرون إليه. والحديث دُونَ في مصنّفات معتبرة مثل البيهقي والطبراني والديلمي. وقد دافع عنه عدد من العلماء المشهورين، منهم الخطّابي والنووي. وروى البيهقي رواية مماثلة ألفاظها كما يأتي: «مهما أوتيتم من كتاب الله فالعمل به، لا عذر لأحدكم في تركه، فإن لم يكن في كتاب الله فسنة منّي ماضية، فإن لم يكن سنة منّي ماضية فما قال أصحابي؛ إن أصحابي بمنزلة النجوم من السماء، فأيتها أخذتم به اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة». قال الخطّابي في مناقشته لهذا الحديث: «والاختلاف في الدين ثلاثة أقسام: الأول في إثبات الصانع ووحديته، وإنكاره كفر؛ والثاني في صفاته ومشيبته وإنكاره بدعة؛ والثالث في أحكام الفروع المحتملة وجوها؛ فهذا جعله الله رحمة وكرامة للعلماء، وهو المراد بحديث: «اختلاف أمتي رحمة». انظر إسحاق بن محمّد العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨)، ٦٤-٦٦.

٢٧ العجلوني، كشف الخفاء، ٦٤-٦٦.

٢٨ علي بن القصار، المقدّمة في الأصول (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦)، ١١٤-١١٥؛ وأبو الوليد الباجي، أحكام الفصول في أحكام الأصول، مجلدان (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٥)، ٢/٧١٤-٧١٦؛ وعمر الفاروق عبد الله، «Innovation and Creativity in Islam» (البدعة والابتداع في الإسلام)، على: <http://www.nawawi.org/downloads/article4.pdf>

## الإسلام حياة ومقاصد

ولأن معظم المواقف الشرعية في الإسلام مبنية على الظنّ، ومن ثمّ فإنّها تؤدي إلى الاختلاف، فقد جعلت المدارس الأصيلة للشريعة الإسلامية فنّ المناظرة مادةً دراسية مطلوبة في مناهجها. وفي حقول المعرفة مثل علم الحديث، يعدّ التعلّم عن ظهر قلب كافيًا، غير أن الحالة ليست كذلك في علم الفقه. ولا بد أن ينال طلبه علم أصول الفقه المتقدّمون فهمًا شاملاً للبراهين والحجج الشرعية التي تشكّل أساس علم الفقه الإسلامي. وكان يحصل طالب الشريعة - مثل المرشحين لنيل الدكتوراة اليوم - على درجة إجازة في الفقه (فقيه، مجتهد، مفتي) بعد تحضير أطروحة مستقلة مؤيدة لرأي فقهّي أصيل معتبر، ثم لا بد أن ينافح عنها بنجاح أمام علماء مؤهلين في أصول الفقه. وبحسب جورج مقدسي، فقد ساهم التقليد الفقهّي الإسلامي الخاص بالمناظرة، والبحث المستقل، والدفاع عن الأطروحة العلمية في نهوض جامعات أوروبا في القرون الوسطى، وتبني الأطروحة العلمية والدكتوراة باعتباره جزءًا أساسيًا للمعرفة المتقدّمة والدراسات العليا<sup>(٢٩)</sup>.

يخلط بعض المسلمين اليوم بين الاختلاف والخلاف، فيعدّون المذاهب والآراء المتخالفة تهديدًا للوحدة. في حين أنّ الوحدة تنجم عن الاتفاق العام المبني على النقاش والاختيار الحرّ. ولا ينبغي أن يكون هناك خلط بين الوحدة والتماثل، فالمجتمعات الإسلامية التقليدية لم تسع إلى تعزيز التماثل بل عزّزت الوحدة في التنوّع. وحالة التماثل يمكن فرضها بالتخويف والضغط الاجتماعي فقط، ولا يمكنها أن تمتد إلى خارج نطاق القوة التي تفرضها. وفرض هذا التماثل ليس من شأنه أن يقوّي المجتمعات، بل إنّهُ يضعفها. بينما من شأن احترام الاختلاف أن يوفّر أساسًا لتماسك اجتماعي حقيقي. وإنّ المبدأ العملي المعني

٢٩ جورج مقدسي، نهضة الحركة الإنسانية في الإسلام التقليدي والغرب المسيحي: مع تنويه خاص بالفلسفة المدرسية (السكولاستية) (إدنبرة: مطبعة جامعة إدنبرة، ١٩٩٠)، ٢٢-٢٩؛ انظر أيضًا المؤلف نفسه، نهضة الكليات: مؤسسات التعليم في الإسلام والغرب (إدنبرة: مطبعة جامعة إدنبرة، ١٩٨١)، ١٠٨-١١١، ١٤٨-١٥٠.



## ورقات طابفة

باحترام الاختلاف، من خلال تعزيز احترام الذات والكرامة الإنسانية، يغذي التفاهم المتبادل ويُنشئ أساسًا يمكن أن يبني عليه مجتمع سليم.

ولا تكمن قيمة احترام الاختلاف في أنها باتت صحيحة سياسيًا، بل لأنها تُبرز إلى النور وجهات نظر مختلفة، وترفع من شأن التحصيل العلمي. وفي القول المأثور في مجال التعليم الإسلامي «نصف العلم في حسن السؤال»؛ إذ يقتضي أدب الاختلاف أن تُطرح أسئلة، كما أنه يؤكد شرعية السؤال بقطع النظر عن مدى قدسية المسألة. ولا يُعدّ الأمر ذا قدسيّة في الإسلام بغير دليل ثابت، وكلّ مسلم له الحق في أن يسأل عن الدليل. وحينما يُحترَم حق السؤال لا تعود الحجج جديرةً بالاعتبار ما لم تكن مبنيةً على أسباب مقنعة وقادرةً على أن تواجه بشجاعة نقاشًا صريحًا وخطابًا صادقًا.

يعتقد كثير من المسلمين أن طرح أسئلة معقدة حول الإسلام غير جائز؛ وبالنسبة إلى البعض يعدّ طرح مثل هذه الأسئلة أو التعبير عن شكوك أمرًا مخجلًا. لم يُعتبر المنهج العلمي الإسلامي التقليدي طرح أسئلة معضلة حول الدين أو سؤال المرء عن شكوكه من قبيل عدم الملاءمة والخطأ، بل على العكس اعتبر عدم السؤال ذنبًا. وكان من ضمن مسؤوليات العالم الفكرية تحضير إجابات شافية على مثل تلك الاستفسارات. وللإجابة الشافية عن صنوف الأسئلة التي يمكن طرحها، كانت تُؤلّف أنواعٌ كاملة من الأدبيات العلمية الإسلامية على شكل سؤال وجواب.

وقد كان العلماء أنفسهم هم الذين يسأل بعضهم بعضًا أكثر الأسئلة صعبة؛ وكانوا يُجرون بحوثًا وتحقيقات نقدية حول ما يبدو في الظاهر متناقضًا ومتعارضًا في القرآن والسنة؛ وكانوا يطرحون أسئلة حول أعظم الحُرّمات في الدين وأهمّ التعاليم والمبادئ الأساسية في الشريعة. والصحابة أنفسهم كان يسألون مثل هذه الأسئلة بين الفينة والأخرى في عهد النبي ﷺ. وقد سأل الصحابي أبو رزين

## الإسلام حياة ومقاصد

النبي ﷺ: «أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه»؟ قال: «كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء»<sup>(٣٠)</sup>.

تعدّ العدالة الاجتماعية إحدى أهم القيم الجوهرية وأعلى المثل في دين الإسلام. ومن شأن التسامح والانفتاح على التساؤلات والاختلاف أن يخلق بيئة يمكن أن يكون فيها الالتزام بالعدالة الاجتماعية مجدياً. ومن التناقض بمكان أن يُتحدّث عن العدالة الاجتماعية في مجتمعات لا ترحب بالاختلاف ولا تسمح بالمناقشة والتساؤلات.

إن إنكار حق الاختلاف وطرح السؤال من شأنه أن يقصّي الناس ويضعف المجتمع ويحكم على أعضائه بكونهم متفرجين سلبيين. ويستلزم المبدأ العملي الخاص باحترام الاختلاف وواجب تنمية مجتمعات فعّالة وجوداً جوّاً يمكن أن يعبرَ فيه عن آراء متنوّعة وتلقى فيه الاستفسارات الجادّة إجابات متّسمة بالاحترام. ومن شأن حق التحقيق والاختلاف أن يُكوّن نظاماً طبيعياً من التفرّجات والتوازنات يعين على الحماية من الشطط والغلو. هذا وإن حرية السؤال والاختلاف مفيدة للمجتمع بأسره؛ فهي تحمّل أعضائه وقيادته على حد سواء المسؤولية، وتفرض عليهم استيفاء معايير معقولة من الحساسية والنضج.

---

٣٠ روى الحديث الترمذّي (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠)، ٧٨٩/٢، رقم: ٣٣٩٤؛ وابن ماجه (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠)، ٣٠/١، رقم: ١٧٨؛ وأحمد بن حنبل (١٩٩١)، ٤٦٨/٥، رقم: ١٦١٨٨. وصنّف الترمذّي درجته بأنه حديث حسن. وقد عرّف راوي الحديث العماء - الذي يعني الظلمة وأيضاً العمى - بأنه وجود منفرد ليس معه وجود أي شيء آخر. وكلمة عماء تشير إلى غطاء كثيف من السحاب. ويقول المفسرون إن إشارة النبي ﷺ إلى أنه ما فوق العماء أو تحته هواء مقصود منها إزالة ما يمكن تصوره خطأً من أن الله كان على ركام من السحاب.

## المبدأ العملي الثالث

### تأكيد أهمية فروض الكفاية

على الرغم من أن فروض الكفاية تُعدّ شأنًا فقهيًا في الأساس، غير أن المبادئ التي تجسدها متأصلة في طبيعة الأخلاق الإسلامية والاعتقاد الإسلامي. تستند فروض الكفاية إلى الإقرار بحرمة الآخرين وإلى أهمية المجتمع. ويشترك الخلق الحسن والإيمان بالله من وجهة النظر الإسلامية في إطار كثير التشابه في المفهوم. ينبنى الخلق الحسن على الإيثار: الاعتراف بالآخر، والسماحة تجاه الآخر، واحترام حقوق الآخر. والصفات الأخلاقية الأصلية - وهي الصدق والأمانة والشكر والصبر والكرم والتواضع والشجاعة وغيرها - تنبع من هذا الاحترام الضمني التام للناس الآخرين وإثبات كرامتهم وفضائلهم وحقوقهم.

وفي الإسلام يعدّ الإيمان في الأساس إيثارًا قُدسيًا، إذ إنّ الله هو الآخر المطلق. وجوهر الإيمان في القرآن هو الشكر. وكلمة الشكر في اللغة العربية تأتي من أصل يعني الاعتراف بالخير الذي عند الآخرين والاستجابة له علنًا وعلى نحو ملائم. والكفر الذي هو ضد الشكر من حيث الدلالة يأتي من أصل آخر هو معرفة الخير الذي لدى الآخرين سرًا وإنكاره علنًا. ويفيد الإيمان - مثل الخلق الحسن إلى حدّ ما - أن تعترف بالآخر (في هذه الحالة هو الله) وتكون شاكِرًا له، فيرى منك الإجلال والتمجيد اللذين هو جلّ جلاله أهلّ لهما. أما الكفر من ناحية أخرى فيعني خشية الله سرًا ولكن إنكاره علنًا ورفض شكره وإجلاله. ولهذا السبب يصف القرآن الشيطانَ بأنه «كافر» (البقرة، ٣٤). ووفقًا للتعاليم الإسلامية، كان الشيطان يتمتع بعلم خاصّ بالله إلا أنه تمرد عليه وعصاه تكبرًا. ففي الإسلام لا يمكن أن يكون هناك إيمان أو كفر بدون علم ضروري؛ إلا أنّ الفرق بينهما يكمن أساسًا في كيفية الاستجابة لهذا العلم.

## الإسلام حياة ومقاصد

يربط القرآن الكريم الإيـان بالخلُق الحسن وبحسّ الواجب الأخلاقي؛ ويؤكّد الخلق الكريم والأمانة الأخلاقية للنبي ﷺ، وكذلك لأصحابه رضوان الله عليهم، ويشير إلى أنّ صفاتهم الأخلاقية شكّلت أساس إيمانهم بالله والتزامهم بالعمل الصالح والإحسان إلى الآخرين. كما أن القرآن يربط بشكل متكرّر الكفر بسبب الأخلق وبالاستخفاف بالآخرين وبالقسوة تجاه المعاناة الإنسانية، تحديداً كما هو ممثّل بالكبر والظلم اللذين اتصفت بهما القلّة التي كانت حاكمة في مكّة. يؤيّد المبدأ العمليّ الخاص بفروض الكفاية إجماع علماء المسلمين، وقد جرى تناول هذا المبدأ باتّساع في مصنّفات أصول الفقه الإسلامي؛ وهو يشكّل أحد العناصر الأساسية للدين الإسلامي. هذا ويُعدّ تأكيد أهميّة الفرض الكفائي ضرورياً من أجل بناء المجتمع الإسلامي الأمريكي؛ فهو يوفرّ قوة دافعة دينية فعّالة للالتزام الاجتماعي وتنمية المجتمع؛ كما أنّه يعزّز الوعي المدني ويستلزم من المسلمين أن يتعاملوا مع المجتمع الأوسع، ويتعاملوا مع احتياجاته، ويجنّدوا الموارد البشرية اللازمة للوفاء بهذه الاحتياجات.

تنقسم الواجبات الدينية في الإسلام إلى فئتين: فرض العين أو واجب العين، وفرض الكفاية أو واجب الكفاية. إن فرائض العين منوطة بكلّ مسلم مكلف، فهي على المستوى الشخصي حصراً، ولا يمكن أداؤها عن طريق شخص بالنيابة عن شخص آخر. فالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، وأكل الحلال والطاهر، فرائض عين. ومن الناحية الأخلاقية يعدّ المسلمون الذين لا يقومون بأداء فروض العين آثمين وفي خطر التعرّض للعقاب الرباني.

أمّا فرائض الكفاية فهي واجبة على المسلمين برمتهم من حيث الجملة، فهي تمثّل المسؤولية الجماعية للناس في تكوين مجتمع طبيعي ومسؤول. فعلى سبيل المثال، من فروض الكفاية ضمان أن يحوز النّاس على الضرورات الأساسية مثل الغذاء والرعاية الصحيّة. يشترط مبدأ فرض الكفاية أن يكون هناك كفاية

## ورقات طابئة

من المؤهلين من الرجال والنساء يجب عليهم تكليفاً القيام بفروض الكفاية بالنيابة عن المجتمع. وتستلزم فروض الكفاية بطبيعتها التعاون من أجل تنمية المجتمعات والدعوة إلى هذه التنمية لتغدو مجتمعات فعالة متممةً بالوعي الذاتي والتنظيم الجيد.

ولا يمكن عموماً أداء فروض الكفاية بدون جهد جماعي لأنها تتطلب أكثر بكثير من المقدرة الفردية للأشخاص حال عملهم منفردين. ولهذا السبب يتطلب كل فرض كفاية عدداً كافياً من الناس مع دعم من المجتمع لضمان أدائه. وإن تجنيد هذه الأعداد من الناس الأكفاء وإعانتهم على القيام بالمهمة لسؤولية المجتمع برمته. وفي حال تهاون المجتمع المسلم بفروض الكفاية يتحمل كل مسلم في هذا المجتمع عبء التكليف والمسؤولية عن إخفاق أفراد المجتمع بمجموعهم؛ وكل فرد من المجتمع يعدّ أثماً ويخاطر شخصياً بتعرضه للعقاب الرباني. وحين يُعتنى بفرض كفايي على نحوٍ كافٍ تسقط عن كاهل المسلمين المسؤولية الجماعية المماثلة ويرفَع عبء إمكانية الإثم الجماعي.

إنَّ المبدأ العملي الخاص بتأكيد أهمية فروض الكفاية يُظهر أن الإسلام أكثر من مجرد دين نُسكٍ شخصية وأنه من غير الممكن أن يقتصر بشكل ضيق على نشاطات المسجد أو المراكز الإسلامية. إنَّ أداء المسلم لفروض العين مثل الصلاة والصوم لا يعفيه أبداً من واجبه التكليفي في الوفاء بفروض الكفاية. وإنَّ أكثر المسلمين استقامة بحسب الظاهر معرضون للعقاب الإلهي فيما لو تغاصوا عن أداء فروض الكفاية واكتفوا بأعمال الطاعة الشخصية لوحدها. وفي الوقت ذاته، يجب أن لا يكون هناك أي اختلال؛ إذ إنَّ التفاني الشخصي للمسلم في تلبية متطلبات المجتمع لا يعفيه من أداء أعمال البر والتقوى المفروضة عليه فرض عين. يمكن تحديد فروض العين (كالصلاة والصوم وغيرهما) بيسرٍ وتأديتها في أوقات معينة حسب هيئات ثابتة. وعند فوات فرض العين يمكن قضاؤه.

## الإسلام حياة ومقاصد

والمسلم غير القادر على الصوم يمكن أن يعوض هذا الصوم في وقت آخر، أو يؤدّي عنه كفّارة. ولكن فروض الكفاية أكثر دقة وتعقيداً؛ فتحديدها في الغالب صعب والقيام بها أصعب. وهي منوطة بأحوال، وتتطلب معرفة وثيقة بالمجتمع وباحتياجاته العاجلة والآجلة؛ إذ ليس لفروض الكفاية أزمته أو أمكنة أو إجراءات محددة مسبقاً؛ وإن عدد الناس المطلوب من أجل القيام بفرض كفائي معيّن، وطبيعة المؤهلات التي يجب أن تكون عند أولئك الناس تقررهما دائماً الأحوال على أرض الواقع وهي باستمرار عرضة للتغيير. وهي بخلاف فروض العين لا يمكن قضاؤها إذا فات وقتها، إذ يتعيّن أداؤها في الزمن والطريقة اللذين تتطلبهما كل حالة. فإذا ما كان شخص يموت من الجوع، لا ينفعه حضور الطعام بعد أن يكون قد مات. وإذا ما كان بيت يحترق، لا يجوز تأخير السعي إلى إخماد النار المندلعة فيه إلى الغد.

وقد أوضح علماء أصول الفقه الأوليّة في الأهميّة لفروض الكفاية في الإسلام بمقتضى صلتها المتلازمة بخير المجتمع من حيث إنّها تؤمّن مصالحه وتدرأ عنه المفسد. وللسبب نفسه تحظى مصالح معيّنّة للمجتمع بأسبقية على حساب مصالح أخرى في حالة التعارض بينها. وعلى العموم فإنّ المصالح الفردية لا يجوز أن تعلق منزلةً على حساب مصالح الجماعة؛ كما أنّ المصالح المجتمعية ذات النطاق الأوسع تحظى بأسبقية على حساب المصالح الجماعية ذات النطاق الأضيق. وعلى سبيل المثال، إنّ حاجة المجتمع الطويلة الأمد إلى أدوية بأسعار معقولة تسبق في الأهميّة المصالح الشخصية والمؤسسية ذات النطاق الأضيق التي يحققها بيع هذه الأدوية بأسعار غير معقولة.

لا تسمح فروض الكفاية لأي مسلم أن يبقى متفرجاً سلبياً في المجتمع؛ إذ يوجد دائماً عمل يجب القيام به، سواءً كان ذا صلة باحتياجات ملحة أم متطلبات أكثر عمومية. والذين لا قدرة أو أهليّة لديهم لأداء فروض الكفاية يتعيّن عليهم

## ورقات طابئة

مدّ أولئك الذين يؤدّونها بالدعم المادي والمعنوي. والمسلمون المؤهلون لإقامة فروض الكفاية يتعيّن عليهم المشاركة والإسهام فيها قدر استطاعتهم، غير أنه كما مرّ ذكره، تقع المسؤولية الجماعية المشتركة، مقابل عدم القيام بفروض الكفاية، على كاهل الأفراد المؤهلين وغير المؤهلين على حدّ سواء.

تتسع فروض الكفاية الأساسية بحيث تشمل جميع ما يتعلّق بمسؤوليات المجتمع وفقاً للقاعدة الإسلامية التي تقول: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب». ويعدّ حفظ النفس أحد أهمّ الواجبات الأساسية في الإسلام، غير أن حفظ النفوس لا يمكن إحرازه دون غذاء ومأوى وأمن. ولذلك فإنّ الحاجة إلى حفظ النفس تُعلي من شأن فروض الكفاية في تأمين المأكل والمسكن والأمن والضرورات المشابهة. وهكذا تتسع فروض الكفاية من اقتضاء تأمين الضرورات الأساسية لتشمل كلّ شيء يعتبر ضرورياً لمصلحة المجتمع المثلى.

في المجتمعات الإسلامية الماضية كان يقع واجب تطبيق أغلب فروض الكفاية على عاتق الدولة مع أنّ المسؤولية التكليفية في القيام بها ما فتئت تشمل المجتمع بأسره. واليوم هناك حكومات قومية وحكومات ولايات، علمانية، تفي بكثير من فروض الكفاية الأساسية، على الرغم من أنّها قد لا تفيها بالتساوي المطلوب بالنسبة إلى جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية. إذ إنّ الخدمات التي تقدّمها يستفيد منها المسلمون وغيرهم، وهذه الخدمات تُعفي المسلمين من الفروض الكفائية المحددة التي تغطّيها، ولكنّها لا تعفيهم من فروض الكفاية الأخرى التي تحقّق الدولة في تغطّيها.

في المجتمعات الإسلامية قبل عهد الاستعمار، أسّس أشخاص خواصّ تنوعاً واسعاً من الأوقاف (الأحباس) النافعة المبرورة، وغالباً ما كان في بالهم فروض الكفاية. وكانت تفي الأوقاف التي يجسونها بالشؤون الهامة العامّة مثل رعاية الأرامل وكفالة الأيتام، والعناية بالصحة البدنية والعقلية للأسرى، وحتى البذل

## الإسلام حياة ومقاصد

في سبيل عافية الحيوانات المصابة والعاجزة. وفي الغرب اليوم، على المسلمين واجب جماعي مشترك في تحديد فروض الكفاية الضرورية وتطبيقها من أجل تنمية المجتمع والمشاركة المدنية والحماية البيئية. ويجب التأكيد بأن فروض الكفاية ليست النطاق الوحيد للناشطين والمتطوعين. واليوم، كما في الماضي، لا تستطيع المجتمعات الإسلامية أن تفني بفروض الكفاية لديها دون تنمية مؤسسية حكيمة متبصرة، بما في ذلك تأسيس الأوقاف الإسلامية وتوظيف محترفين مدرّبين تدريباً جيداً.

إن فروض الكفاية منسّية إلى حدّ كبير في البلدان الإسلامية في وقتنا الحاضر، ونادرًا ما تُفهم في مجتمعات إسلامية نامية كمجتمعنا. وإن إهمال فروض الكفاية - ربما بمقدار إهمال أي شيء آخر - يفسّر الحالة المؤسفة للعالم الإسلامي على وجه العموم اليوم. فعندما يكون تركيز المسلمين منحصرًا في واجباتهم ومصالحهم الفردية فإنهم يفقدون النظر في المهمّة الاجتماعية للإسلام، فيغدون ضحايا طريقة تفكير متشردم ذي بعد واحد غير قادر عمليًا على (الإدراك النقدي) والوعي الاجتماعي، فيكون لدى كثير من المسلمين - والحالة هذه - مقدرة ضئيلة على الاستيعاب والفهم، وباعث ضعيف لحفظ مجتمعهم وتنميته، وقدر قليل للغاية من اهتمامات العالم من حولهم.

أمّا بالنسبة إلى المجتمع المسلم الأمريكي، فتستلزم فروض الكفاية التطوير الاستباقي للموارد المحتاج إليها التي تتعامل مع قضايا حقيقية على أرض الواقع، التي منها تطوير خدمات اجتماعية أفضل، وتوجيه مهني بشأن الزواج، وتطوير مؤسسات مالية، وتأسيس معاهد إسلامية متطورة. كما تتطلب منّا فروض الكفاية الخاصة بنا تناول قضايا ملحة طفت على السطح في المجتمع المسلم الأمريكي خلال العقود الأخيرة. هذا وإنّ المبدأ العملي الخاص بفروض الكفاية يتطلب بالطبع الصراحة والصدق في تحديد المشاكل، وإلا فلا يمكن حلّها. وسوف



## ورقات طابئة

أتناول فيما يأتي ثلاث قضايا تطلب عنايةً واهتماماً، وتشكّل فروض كفاية من الدرجة الأولى وهي: الخيارات المهنية، والزواج، وتراخيص بيع الخمر.

### الخيارات المهنية

تقع جميع المهن وحقوق العلم التي تخدم حاجات المجتمع الماديّة والثقافية ضمن فروض الكفاية. ولا يمكن أن يكون في المجتمع مكان للنخبوية، فأية مهنة شريفة هي مهنة صالحة؛ وسواء كان الشخص سائق أجرة أم يعمل في غرفة الطوارئ بأحد المستشفيات، فكّل منهما يساهم كسب رزقه في خدمة مجال مهني مهمّ في المجتمع. ولكن في أحيان كثيرة فإن مواقف مجتمعنا تجاه خيارات المهنة لها كلّ العلاقة بالمال والمكانة الاجتماعية، ولا تكاد تتمّ بأيّ صلة إلى احتياجات مجتمعنا المجلّلة باعتباره مجتمعاً مسلماً نامياً في أمريكا.

وإنّ الطب والهندسة ومجالات أخرى عديدة من المهن ذات العوائد المالية الجيدة في المجتمع المسلم الأمريكي ممثلة بشكل جيّد، إن لم يكن بشكل مبالغ فيه. ولهذا المهن قيمة لا تقبل الجدل، ولكن ميل المجتمع إلى وضع مهن مرغوبة في أصناف اجتماعية ضمن هذا النطاق المحدود من شأنه أن يفسد مستقبلنا. وغالباً ما يُنظر خطأً إلى علوم اجتماعية - مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإنسان - أنّها أقلّ قيمةً باعتبار أنّها غير مربحة ولا تمنح مكانةً نخبويةً في مجتمعنا. وفي حقيقة الأمر، تؤدّي العلوم الاجتماعية دوراً مهمّاً في المجتمع الحديث، وتكوّن أولويّات أساسيةً للمسلمين الأمريكيين؛ وهي تخدم مصالح المجتمع الضرورية في مجالات مثل الصحة العقلية، والرفاهية الاجتماعية، والتنمية الثقافية. وإنّ مقدرتنا نحن المسلمين على العمل بشكل فعّال في المجتمع الحديث تقتضي فهماً دقيقاً للحدّات؛ ومثل هذا الفهم يقع مباشرة ضمن اختصاص العلوم الاجتماعية. ومن فروض الكفاية الأساسية بالنسبة إلى المسلمين الأمريكيين تطوير كوادرات كافية

## الإسلام حياة ومقاصد

من علماء الاجتماع المدربين تدريباً جيداً بحيث لا تكون أبحاثهم ذات جدوى للمجتمع المسلم فحسب، بل ذات قيمة عالية أيضاً للمجتمع الأوسع بكامله. كما أن اختصاصات العلوم الإنسانية مثل التاريخ والفكر الحديث والفلسفة والآداب تعدّ على نطاق واسع في مجتمعنا هامشية، لكنّها أيضاً ضرورية وتفي بفروض كفاية أساسية مشابهة لتلك الفروض المتعلّقة بالعلوم الاجتماعية؛ وهي تنقل نظرة أوسع للعالم، من حيث كيفية ارتباط ماضيه بحاضره ومستقبله، والأفكار المؤثّرة للغاية في زماننا. وهذه العلوم تتيح البلوغ المباشر إلى فهم فعّال عابر للثقافات وإلى تنمية فكرية، وتمكّن المجتمع من أن يأخذ بنفسه زمام التفسير لذاته ولدينه في بيئة معاصرة.

### الزواج

من بين أخطر الأزمات التي تواجه شرائح كبيرة من المجتمع المسلم الأمريكي اليوم العوائق والمصاعب غير المبرّرة التي تقف في وجه كثير من المسلمات والمسلمين المستعدين للزواج لدى بحثهم عمّن يناسبهم من أزواج وزوجات. والأزمة حادّة على النساء تحديداً، وهي معهودة بالنسبة إلى من ينتمين إلى عائلات مهاجرة، ولكنها ليست أقلّ حدّة بالنسبة إلى المسلمات من الأمريكيات الأفارقة. وهذه الأزمة من غير ريب معقّدة، ويتمثّل أحد أسبابها الرئيسة في المجموعة المحدودة التي يجري اختيار الزوجات والأزواج المسلمين منها. وهناك أسباب أخرى تشمل مشاكل ذات ارتباط بالطبقة الاقتصادية والعرق والخلفية الثقافية؛ بالإضافة إلى أن المسلمين على العموم لا يسمحون بالمواعدة التي تعدّ بالنسبة إلى الكثير من الناس في الغرب مقدّمة للزواج. ولا يزال من الواجب على المسلمين الأمريكيين تطوير بدائل ثقافية فعّالة تسمح لهم - ضمن معايير إسلامية - بالتغلب على العقبة المتعلّقة بالتعامل بين الجنسين وبتهيئة الزواج عن طريق

## ورقات طابئة

وسائل عملية مثل التعارف. هذا وإنّ الأضرار الفعلية والمحتملة التي تؤدّي إليها على الأرجح أزمة الزواج على صعيدي الفرد والمجتمع لا يمكن تصوّرها. وإنّ مواجهة المشكلة بصدق وأمانة، كما يجري عمله من قبل كثيرٍ من المسلمين، وإيجاد حلول لهذه المشكلة، هو من فروض الكفاية الملحة.

### ترخيص بيع الخمر

يعدّ وجود الآلاف من محلات بيع الخمر التي يملكها مهاجرون مسلمون داخل المدن الأمريكية أحدَ أخطر الأمراض الاجتماعية التي تؤثر في الوقت الحاضر على المجتمع المسلم الأمريكي؛ فوجودها يهدّد بإضعاف المكاسب التي حققها المسلمون من الأمريكيين الأفارقة خلال القرن العشرين من خلال المشاركة الاجتماعية في تلك المجتمعات. وإنّ وجود تراخيص بيع خمر يملكها مسلمون في كل مكان في شيكاغو ومدن أمريكية أخرى استمر في كونه مصدرَ توترٍ ونزاع<sup>(٣١)</sup>. وبالنسبة إلى المسلمين، يعدّ تشغيل هذه المحلات أو تجاهل وجودها أكثر بكثير من انتهاك القانون الإسلامي؛ إذ إنّ محلات الخمر تؤذي الأحياء والعائلات في المحيط الذي توجد فيه هذه المحلات وترسم عمومًا صورة سلبية عن جميع المسلمين. وتعتبر الأعمال التي يملكها مسلمون والقائمة على بيع الخمر داخل المدن في عيون القادة المدنيين البارزين من المسلمين وغيرهم مفسدة اجتماعية اقتصادية. هذا وإنّ معالجة المسلمين الأمريكيين لهذه المشكلة بفعالية أكبر وإيجاد حلّ حكيم متّزن لها ليعدّ فرض كفاية ذا أولوية مقدّمة.

٣١ قامت مؤخرًا شبكة العمل الإسلامي في الأحياء الشعبية "The Inner-City Muslim Action Network (IMAN) بالتعاون مع مركز البحوث التطبيقية "Applied Research Center (ARC) لنشر وثيقة بحثية على مستوى القاعدة الشعبية حول هذا الموضوع، انظر: <http://www.imancentral.org>.

## المبدأ العملي الرابع

### ترتيب الأولويات

يقول النبي محمد ﷺ: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدلَّ أمته على خيرٍ ما يعلمه لهم، ويُذرهم شرَّ ما يعلمه لهم»<sup>(٣٢)</sup>. يُعدُّ السعي إلى الخير واتقاء الشر غايتين أوليتين في الشريعة النبوية. وقد أوجز العلامة الفقيه العز بن عبد السلام الإسلام برمته في عبارة واحدة هي: «جلب المصالح ودرء المفساد»<sup>(٣٣)</sup>.

إنَّ تركيز الاهتمام على المصالح والمفاسد جزءاً من الإرث النبوي العام، وعلى ذلك فهو يشكّل واجباً إسلامياً حاسماً. ويعدّ فهم أهمية ترتيب الأولويات مبدأً عملياً ضرورياً في الإسلام، إلا أنَّ الكثيرين من المسلمين، على الرغم من قدر الوضوح الذي يبدو عليه هذا المبدأ، في ذهول وغفلة عنه من حيث العمل والتطبيق.

رتّبت الشريعة الإسلامية، من أجل تيسير تأمين الخير للمجتمع، ثلاثة مستويات تنازلية للأولويات، من شأنها أن ترتّب المصالح والمفاسد وفقاً لأهميتها، وهذه المستويات الثلاثة هي: الضروريات والحاجيات والتكميليات؛ وسوف يُبحث كلٌّ منها بتفصيل أتمّ فيما يأتي، ولكن قبل ذلك نأتي على بحث مقاصد الشريعة الخمسة الكبرى التي تنبني عليها. تبيّن هذه المستويات الثلاثة للأولويات أوجه الاختلاف بين السمات المتنوعة للشريعة النبوية؛ فهي تعطي أولوية أعلى لما هو ضروري لخير المجتمع وسلامته، وأولوية أدنى لما هو ليس كذلك. ويستطيع

٣٢ صحيح مسلم (٢٠٠٥)، ٨٨٠، رقم: ٤٧٥٣؛ وسنن النسائي (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠)، ٦٩١/٢، رقم: ٤٢٠٨؛ وسنن ابن ماجه، ٥٧١، رقم: ٤٠٩١؛ ومسنند الإمام أحمد بن حنبل (١٩٩١)، ١٩١/٢، رقم: ٦٧٩٣.

٣٣ فولفهارت هاينريش، "Qawā'id as a Genre of Legal Literature" (القواعد باعتبارها أحد أنواع الأدبيات الشرعية)، ٣٧٢.

## ورقات طابئة

المسلمون بترتيب الأولويات العمل سعيًا إلى ما فيه أفضل منفعة لهم في أوقات الرخاء وأوقات الشدة وذلك بتخصيص الوقت والموارد للاحتياجات الأساسية دون أن يصبحوا منهمكين بشؤون ثانوية أو أولويات زائفة.

إن للكلمتين العربيةتين (مصالح) و(مفاسد) تأكيدًا مختلفًا قليلاً عن نظيرتيهما الإنكليزيتين: "benefits" التي قد تُذكر للوهلة الأولى بمحاسن ومنافع غير ضرورية، و"detriments" التي غالبًا ما تُذكر بالمساوئ والعوائق. بيد أن الكلمة العربية (مصالح) تشير حرفيًا إلى ما يجلب السلامة والعافية والخير، وتذكر على الفور بالحاجات الضرورية والنافعة، مع أنها تشمل أيضًا محاسن ومنافع غير ضرورية. و(المفاسد) هي اللفظة المقابلة من حيث الدلالة للمصالح، حيث إن ذكر إحداهما يذكر بالأخرى، على غرار كلمتي (الخير) و(الشر). والمفاسد لغةً تشير إلى ما يفضي إلى الفساد والانحلال، وهي تذكر على الفور بالأذيات والأضرار الأساسية بما في ذلك المساوئ والعوائق.

المصالح والمفاسد ليست مطردة ولا مجردة؛ بل هي منوطة على نحو متلازم بظروف ووقائع ملموسة. ومثل ذلك أوامر الشرع الإسلامي، فهي غير متساوية فيما يتعلّق بأهميّة مقاصدها وعللها. وإنّ المقاصد الأساسية للإسلام، بدون ترتيبٍ للأولويات، تصبح ملتبسةً ومنقطعةً عن مقصدها الاجتماعي. ويقتضي تحديد الأولويات إجراء محاكمات شاقّة بشأن مقدار أهميّة المصالح والمفاسد المتنوّعة في سياقات مختلفة، والأولوية في مراتب الأحكام الشرعية الموازية لها. وفي الشريعة الإسلامية، الفرع المتخصص بدراسة كيفية إجراء مثل هذه التقويمات يسمّى علم الموازنة. وتاريخيًا كان الفقيهان الشهيران الشاطبي وابن تيمية متقدّمين في هذا المجال.

وقد ربّبت الشريعة الإسلامية الأولويات الثلاثة وفقًا لترتيب هرمي من الغايات الشرعية، تقع في أعلى هذا الترتيب المقاصد الخمسة الكبرى، وهي

## الإسلام حياة ومقاصد

حفظ كلِّ من: الدين، والنفس، والعقل، والنسل<sup>(٣٤)</sup>، والمال. يضيف بعض العلماء (العرض) على أنه مقصد سادس، ولكنَّ العلماء كلَّهم متفقون على المقاصد الخمسة الأساسية. وهذه المقاصد الخمسة الكبرى تشكّل القواعد المنطقية الكبرى الشاملة للإسلام؛ وهي المحور الذي تدور حوله فروض العين والكفاية الأكثر إلزامًا. وإنَّ الهدف الأصليّ للفقهاء الإسلاميّين تأمين هذه المقاصد أولاً - أو بأكثر فاعلية ممكنة - قبل الانعطاف إلى أولويّات أدنى منها رتبة. وفي علم أصول الفقه تعدّ المقاصد الخمسة الكبرى من الأهميّة القصوى بمكان لتحقيق الخير والسلامة للمجتمعات الإنسانية جمعاء، بقطع النظر عن الدين، إذ إن تآكل أيّ منها يهدّد استمرار وجود المجتمع بأسره.

- حفظ الدين يقتضي كل شيء ضروري من أجل فهم الإسلام وتطبيقه على نحو سليم. ويقع كلُّ من هذه المبادئ العملية الخمسة في هذا البحث ضمن واجب حفظ الدين. ويتضمّن هذا المقصد الكبير على سبيل المثال خلق تنوّع واسع من البحث والتأليف حول الإسلام مثل ترجمات وتفسير ومؤلفات - بلغة إنكليزية راقية - لها صلة بالزمان والمكان الخاصّين بنا. وفي أمريكا اليوم، يحتمّ حفظ الدين الإسلامي بشكل جيّليّ تأسيس مؤسسات تعليمية إسلامية محلية بارزة.
- حفظ النفس يعني حماية الحياة الإنسانية من العنف والمرض وشدّة الجوع وأي شيء آخر يهددها. ومن بين الأولويّات الكثيرة المرتبطة بهذا

٣٤ أفضل أن أترجم الكلمة العربية (نسل) children، بسبب الطبيعة الملموسة للكلمة، وللأهميّة المركزية للأولاد في الإسلام وفي صالح العائلات والمجتمعات. 'Children' هي ترجمة سليمة لكلمة نسل في المعنى المعجمي الأساسي للولد؛ وترجم عادة كلمة نسل progeny وهي ترجمة سليمة أخرى للكلمة في المعنى المعجمي للذريّة. وفي العربية، المعنى الثاني 'progeny' يعني أساساً أجيال من الأولاد). وحيث إنّ حماية الأولاد تعدّ مقصدًا كبيرًا في الشريعة الإسلامية، فهي منوطة بشكل وثيق بمؤسسة العائلة. ويستعمل علماء مسلمون كثيرًا كلمة (نسب) محلّها.

## ورقات طابئة

- المقصد ما يكفي من المأوى والأمن والخدمات الصحية.
- حفظ العقل يقتضي حماية العقل البشري ممّا يضرّ به مثل الجهل والجنون وإدمان الكحول والمخدّرات. ومن الناحية الإيجابية، يستوجب ذلك التنمية الشاملة للعقل البشري، الأمر الذي يطلب التعرّض للتنشيط الإيجابي والتعليم الجيّد.
  - حفظ النسل يركّز على الأطفال، غير أنه يستلزم كلّ شيء ضروري يحقق الخير والسعادة للعائلة؛ ومن ذلك الزواج، والأبوة، ورعاية المعاقين، وهلمّ جرّاً. كما يوجب ذلك التحصّن والاحتراز من الشرور الاجتماعية مثل إساءة معاملة الأطفال والزوجات وكبار السنّ.
  - حفظ المال يقتضي تكوين المال الحلال وإنماءه وحمايته. وهذا المقصد يضع التنمية الاقتصادية في مركز المشروع الاجتماعي للإسلام؛ ويستوجب أيضاً حماية المال من الهدر والإتلاف والضياع عن طريق السرقة أو النهب أو الاحتيال أو الاختلاس أو غيرها من الجرائم.
- وعلى غرار فروض الكفاية، تتسع المقاصد الخمسة الكبرى لتشمل شؤوناً أخرى من طريق المبدأ السابق ذكره «ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب». وكما وضحنا آنفاً، فإنّ حفظ الدين يقتضي تعليم الدين بشكل ملائم وسليم، وهو ما لا يمكن تحقيقه بدون علماء دين أكفاء؛ وهؤلاء العلماء لا يمكن إعدادهم من غير مرافق تعليمية فائقة. ولذلك من الأولوية الأساسية بمكان إيجاد مؤسسات تعليمية إسلامية ممتازة.
- في الشريعة الإسلامية، كما تقدّم، ثلاث مراتب من الأولويات: الضروريات والحاجيات والكماليات. الضروريات، الأعلى رتبة في الأولويات، ذات ارتباط متلازم بالمقاصد الخمسة الكبرى، فهي منوطة مباشرة بجلب مصالح ضرورية لا يُستغنى عنها، ودفع مضارّ خطيرة. والضروريات هي أمور لا يستطيع الأفراد ولا

## الإسلام حياة ومقاصد

المجتمعات أن يعيشوا بدونها، وأكثر هذه الأمور أهميّة المقاصد الخمسة الكبرى. فمن الضروري على سبيل المثال في الطقس البارد امتلاك مأوى أساسي مع دفء وماء ساخن. وكما ذكر فإن نطاق الضروريات يتسع ليشمل كلّ شيء مطلوب لاستيفاء المقاصد الخمسة الكبرى. وإنّ إيضاح ما هي ضروريات مجتمع ما يجعل تحديد أكثر فروض الكفاية إلحاحًا ممكنًا.

والحاجيات تشكّل المستوى الثاني من الأولويّات، وهي تتعلق بجلب مصالح أذى ودرء مفسد أقل؛ وهي مرتبطة بشكل وثيق بالضروريات لأنها تساندها وتجعل بلوغها والحفاظ على سلامتها أيسر. وتحظى الحاجيات، بخلاف الضروريات، بأهميّة ثانوية ويمكن الاستغناء عنها. فالمجتمع الذي يخفق في بلوغ حاجياته الثانوية يمكنه أن يبقى مجتمعًا حيًا، غير أن نوعية الحياة التي تتوفر فيه عندئذ ستكون أقل من مُرضية. فيُعدّ مثلاً حيازة مأوىٍ أساسيٍّ ودفءٍ وماءٍ ساخن في الطقس البارد من قبيل الضروريات؛ وتزويد المأوى بأدوات كمالية مهمّة مثل (غسّالة صحون) من قبيل الحاجيات.

أمّا الكماليات التي تسمّى أيضًا (التحسينيات) و(التزيينيات)، فهي ترتبط بمصالح ومفاسد قليلة الشأن؛ ولها صلة وثيقة بالحاجيات بطريقة مشابهة لصلة الحاجيات بالضروريات. والكماليات تجعل تأمين الحاجيات أكثر يسرًا. وهي تؤثر على نوعية الحياة بتحسينها وتزيينها تأنقًا وتعقيدًا، وتؤدي أيضًا إلى إزالة مفسد جزئية مثل الفظاظة. والكماليات هي التهذيبات التي يتسم بها مجتمع متحضّر، وهي تُبدي الحياة الخاصّة والعائلية والاجتماعية في أسمى صورها وأحسنها. فالأوى الأساسي من الضروريات، والأدوات الكمالية المهمّة - لكن غير الأساسية - مثل غسالات الصحون من الحاجيات، والتزيينات الداخلية الجذابة والإطلالة الجميلة تعدّ من الكماليات.

ولأن الضروريات لازمة حتّى، فيجب دائمًا أن تأخذ الأولويّة القصوى،



## ورقات طابئة

ويجب أن تتوسع أفضل الموارد وأكبر الجهود لتأمينها. وكما رأينا فإنّ الضروريات قوام المجتمع؛ والحاجيات مساندة للضروريات؛ والكماليات مساندة للحاجيات. ولذلك فإنّ السعي إلى بلوغ الحاجيات يجب أن لا يُسمح له أن يقف في طريق بلوغ الضروريات، ويجب أن لا تُعطى الكماليات أولويةً فوق الحاجيات. فترتيب الأولويات في الشريعة الإسلامية يعني وضعها بالترتيب: الضروريات فالحاجيات فالكماليات، بحيث تقوم الأولويات الأدنى بمساندة الأعلى منها، لا أن تتعارض معها.

في الأوضاع المثالية، توجد الضروريات والحاجيات والكماليات جنباً إلى جنب؛ غير أنّ واقع الحياة وطبيعة التطوّرات في المجتمع تجعل تأمين جميع المستويات الثلاثة معاً في أغلب الأحيان مستحيلاً. وفي مثل هذه الحالات ينبغي أن تُستبدل الأولويات الأعلى بالأدنى منها؛ إذ من الواجب دائماً مراعاة التسلسل الهرمي للأولويات؛ ويجب أن يُضخّى بالحاجيات والكماليات من أجل الضروريات عندما يستحيل تأمين الثلاثة جميعاً معاً. وبطريقة مماثلة، يجب التضحية بالكماليات من أجل الحاجيات حين لا يسمح الأمر على أرض الواقع أن تجتمعا معاً. فمثلاً يعدّ من الضروريات إقامة معاهد إسلامية، ومن الحاجيات توقّف منح دراسية، ومن الكماليات إيجاد أفضل الأماكن وتوقّف مرافق مُرضية من الناحية الفنية الجمالية. إلا أن مشروع المعهد الأساسي يأتي أولاً، ولا ينبغي أن يتعطل بسبب صعوبة تأمين منح دراسية، أو العثور على موقع لحرم جامعي جذاب.

وقلّم تحدث نشاطات إنسانية دون احتمال أن يأتي من تلقائها مصالح وأضرار متزامنة معها. وعند حصول مصالح وأضرارٍ معاً يجرّم نظام التسلسل الهرمي للأولويات في الشريعة الإسلامية أي عمل تكون المصالح المحتملة التي تأتي منه أقل من الأضرار المحتملة المترتبة عليه أو مساوية لها. والقاعدة الشرعية ذات

## الإسلام حياة ومقاصد

الصلة بهذا الشأن تقول: (درء المفاصد أولى من جلب المصالح). فالقيادة السريعة للسيارة في مكان ما قد تكون ذات فائدة، إلا أنها محرّمة في الشريعة الإسلامية إذا كانت تؤدي إلى خطر التعرض لحادث سير؛ إذ إنّ المصلحة المفترضة من السرعة لا ترجح على المفسدة المحتملة بسبب وقوع حادث. غير أنه حين يكون احتمال المصلحة أكبر من احتمال الضرر يكون الفعل جائزاً، وفي بعض الحالات يكون مستحباً أو واجباً. وعندما تشق سيارة الإسعاف طريقها بسرعة إلى المستشفى لإنقاذ حياة شخص ما في حالة حرجة، فهي تخاطر بهذه السرعة باتجاه تعرضها لحادث سير، إلا أن مصلحة إنقاذ حياة مريض ترجح كثيراً على ضرر احتمال وقوع الحادث.

وأحياناً ليس بالإمكان تجنّب ضرر أكبر إلا بالتعرض لضرر أقل، وقد يكون من غير الممكن تجنّب محذور أكبر إلا بالوقوع في محذور أخف. وحينما يكون الأمر كذلك، يصبح اختيار عمل ما يتطلب فعل ضرر أقل أو محذور أخف جائزاً - وفي بعض الأحيان واجباً - بالرغم من أن أيّاً منهما ليس في حقيقة الأمر جائزاً. فعلى سبيل المثال، يعدّ أكل الميتة ضاراً بالصحة ومحرمًا بشدّة في الشريعة الإسلامية، إلا أنّ المجاعة أكبر ضرراً وأعظم حرمة؛ ولذلك فالقرآن الكريم يوجّه الشخص الذي يتضوّر جوعاً إلى أن يأكل من الميتة أو من مواد غير طاهرة مشابهة ليبقى حيّاً في حال عدم وجود شيء طاهر وجائز يأكله.

توفّر ظاهرة المؤتمرات والمحافل الإسلامية في الولايات المتحدة وكندا مثلاً لمصالح ومفاسد متنوّعة وكيف يمكن ترتيبها بحسب الأولوية. ويمثّل تنظيم هذه اللقاءات أولويّة لأنها تقوم على خدمة الضروريات مثل المساهمة في حفظ الدين وتنمية المجتمع. وهي تحقق حاجيات كثيرة أخرى تتعلق بالفرد والمجتمع مثل إتاحة الوصول إلى العلماء والأفكار الجديدة؛ وهي توفّر كماليات عديدة مثل اللقاء بالأصدقاء. غير أنّه، مثل حال أغلب التجمّعات الكبيرة، قد لا تفي

## ورقات طابئة

المؤتمرات أيضًا بالتوقعات في جوانب معينة. فقد لا يكون تنظيمها جيدًا؛ وربما تحقق في منح تمثيل عادل لجميع الجماعات العرقية؛ وقد تكون برامجها سطحية ومكررة. وعلى العموم فإن منافع المؤتمرات بالرغم من ذلك ترجح على مفاسدها، وتبقى بالنسبة إلى المجتمع ذات أولوية وفرصًا كفايةً مهمًا.

إن الأولويات الموضوعية في غير محلها عقبه عائرة شائعة في المجتمع المسلم الأمريكي؛ وهي غالبًا ما تنشأ من مجرد غياب الوعي بأن الأولويات جزء من الدين الإسلامي. وفي بعض الحالات تنجم هذه الأولويات المرتبكة من انتقال وجهات العالم القديم إلى الغرب دون تقويم نفعها في بيئة جديدة. والدعوى القائلة إن الكلام صراحةً عن مشاكل المجتمع يعد أمرًا مخزيًا أو يمثل هجومًا على الإسلام متأصلةً بعمق في مفاهيم العالم القديم حول العار والشرف. وهناك انتقال ثقافي آخر هو الاهتمام الذي توليه بعض المجتمعات لتنشئة الأطفال على فضيلة حفظ القرآن الكريم، ومع ذلك فلا تكاد تهتم أو أبدًا لا تهتم بتعليمهم اللغة العربية والتفسير الأساسي بحيث يمكنهم الاستفادة الكاملة مما يحفظونه. ويتصدى بعض الأئمة فعلاً لتناول القضية التي مضى ذكرها حول امتلاك بعض المسلمين لتراخيص بيع الخمر داخل المدن؛ وآخرون يشددون النكير على أولويات زائفة مثل المفاسد المزعومة لعشية مناسبة عيد القديسين (الهالوين)، ووضع الطلاء على أظافر النساء؛ ولكنهم يتفادون ذكر واقع امتلاك بعض المسلمين لأعمال بيع الخمر، على الرغم من أنه قد يكون بعض من يمتلك أكبر هذه الأعمال جالسًا أمامهم ضمن الجمع الذين يتكلم إليهم.

## المبدأ العملي الخامس

### الأخذ بالقواعد الكلية

يشكل كل من المبادئ العملية الأربعة السالفة مجموعة واحدة من مفاهيم مترابطة بإحكام. والمبدأ العملي الآتي، الذي يعدّ محطّ الاهتمام الرئيس في هذا البحث، يختلف بعض الشيء. فالقواعد الكلية هي أصول الفقه الإسلامي المصوغة بعبارات وجيزة جامعة، ومبادئ عملية نافعة تقريبية. والقواعد تعدادها بالئات، وهي تمثل إرثاً أديباً جامعاً في الفقه الإسلامي. والأخذ بها من حيث إنّها مبدأً عملي لا يعني تعلّمها بالكامل، إذ يكفي معرفة بعضها بالقياس إلى غيرها من الأمور. غير أنّ المسلمين ينبغي أن يكون لديهم معرفة بوجود هذا المورد النفيس، ويتعيّن عليهم الاستفادة الجيدة منه. وتوفّر هذه القواعدُ الكليةُ معيناً ثراً للتثقيف والتوجيه الإسلاميين، مما يجعلها عنصرًا أساسيًا في التعليم الديني للمجتمع.

إنّ القواعد الكلية سهلة الفهم نسبيًا ولها تطبيق مباشر في حياتنا. وهي بيانات معتمدة في الشريعة الإسلامية وتعدّ من أنفع ما يعبر عن مُثل الإسلام وفلسفته العامة. وقد سبق الإشارة إلى عدد من هذه القواعد في هذا البحث، مثل: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب». وتقدّم هذه القواعد معايير لإصدار الأحكام وترتيب الأولويات والقرارات بشأن مسارات العمل؛ وتحمل كل قاعدة في طياتها مقتضيات ومعان ضمنية ويوجد لها تطبيقات عديدة قد لا تكون باديةً للوهلة الأولى. وفيما يأتي سأقدّم تعريفًا موجزًا بهذه القواعد، ثم أناقش بعد ذلك القواعد الكلية الخمسة، التي تُجمل مقاصد الإسلام الأساسية.

تأتي بعض آي القرآن والأحاديث النبوية في صورة جملة موجزة، ومثلها في ذلك القواعد الكلية. وقد شكّلت عبر التاريخ هذه النصوص نقطة الانطلاق في الكتابة عن القواعد الكلية. يقول الله تعالى في القرآن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء، ٢٨) وقد عبّر عن معنى الآية في القاعدة

## ورقات طابئة

الكليّة: «المشقة تجلب التيسير». وتوصي آية أخرى بالآتي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف، ١٩٩)؛ وهي دليل نصي على القاعدة الكليّة: «العادة مُحكّمة». ويقول النبي ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيّات»، وهو ما ينعكس في القاعدة الكليّة: «الأمر بمقاصدها». ويقول أيضًا: «لا ضرر ولا ضرار»، وهو المرجع الأصلي للقاعدة الكليّة: «الضرر يُزال».

اعتمد علماء أصول الفقه على القواعد الكليّة منذ قرون الإسلام الأولى إلى يومنا هذا، ويولي العلماء المسلمون المعاصرون أهمية كبيرة لها. وتعدّ القواعد الكليّة الشرعية مبادئ متكاملة في جميع المذاهب الفقهية السنيّة والشيعية على حدّ سواء. ويعطيها جميع العلماء المسلمين إقرارًا عامًّا واسعًا، ومع أنّهم لا يتفقون عليها كلّها، إلا أنّ معظم هذه القواعد مؤيّدَةٌ إمّا بالإجماع أو بالاتفاق العام. وربما لا تتمتع أية مجموعة مهمّة أخرى من الأصول الدينية أو الفقهية في الإسلام بمثل هذه الدرجة العالية من المرجعية والإجماع كالتّي تتمتع بها القواعد الكليّة الشرعية.

## القواعد الكليّة الخمسة

تأخذ القواعد الكليّة الخمسة موقعها في صميم مركز مبادئ القواعد الأخرى في الشريعة الإسلامية<sup>(٣٥)</sup>. ويرى كثير من الفقهاء المسلمين المرموقين أنّ هذه القواعد

٣٥ توجد مؤلّفات قليلة حول القواعد الشرعية الإسلامية باللغة الإنكليزية. وأفضل المصادر المتاحة هي مجموعة أقراس مدبّجة للشيخ عبد الله بن بيّه ومقالتان أكاديميتان لفولفهارت هاينريش، مذكورة أدناه. والقواعد التي وردت في طي هذا البحث والملاحظات المتعلقة بها تأتي من طيف متنوّع من المراجع، أهمّها - التي هي أيضًا المصادر الرئيسة لمعظم الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة ذات الصلة والمستشهد بها بالاقتران مع القواعد الكليّة - الآتي: عبد الله بن عبد العزيز العجلان، القواعد الكبرى في الفقه الإسلامي (الرياض: دار طيبة، ١٩٩٦)؛ ويعقوب بن عبد الوهّاب الباحسين، قاعدة الأمور بمقاصدها: دراسة نظرية وتأصيلية (الرياض: مكتبة الرشد، ١٩٩٩)؛ والشيخ عبد الله بن بيّه، الفلسفة الشرعية للإسلام ("The Legal Philosophy of Islam")، ١٣ قرصًا مدبّجًا (CD) (سان هوزيه، ألهمبرا للإنتاج، ٢٠٠٠)؛ وعلي أحمد الندوي، موسوعة القواعد والضوابط

## الإسلام حياة ومقاصد

الخمس تجسّد روح الشريعة الإسلامية بكلّيتها. وكما ذكرنا في المقدّمة، فإنّ على طالب العلم أن يضع في باله باستمرار، من أجل استيعاب الفائدة الكاملة للقواعد الكلّية الخمسة، أنّها تشكّل خلاصة موجزة بليغة لحكمة الإسلام الفعّالة والمؤثّرة. وإنّ مقصد المبادئ العملية الخمسة في هذا البحث إعانة المسلمين على إدراك إمكاناتهم - أفرادًا ومجتمعات - من خلال فهم أعمق لدينهم. والقواعد الكلّية الخمسة تشكّل أساس هذا الفهم.

وإنّ كلاً من هذه القواعد الكلّية الخمسة متفق عليه بإجماع علماء السنّة والشيعّة، ولذلك فهي تتجاوز جميع المذاهب والطوائف مشكلةً أساساً موثوقاً لبناء مجتمع مسلم تعددي ومستنير، وهي:

١. الأمور بمقاصدها
٢. اليقين لا يُزال بالشك
٣. الضرر يُزال
٤. المشقة تجلب التيسير
٥. العادة مُحكّمة

---

الفقهية الحكيمة للمعاملات المالية في الفقه الإسلامي، ٣ مجلّدات (بدون مكان النشر، دار علم المعرفة، ١٩٩٩)؛ وفولفهارت هاينريش، "Structuring the Law: Remarks on the Furuq Literature" (بناء الشريعة: ملاحظات على أدبيات الفروق) في مؤلّف لإيان ريتشارد تِن (محرر)، دراسات على شرف كليفورد إيدموند بوسورث "Studies in Honour of Clifford Edmund Bosworth"، مجلد واحد: *Hunter of the East: Arabic and Semitic Studies* (صائد الشرق: دراسات عربية وسامية) (لايدن: برل، ٢٠٠٠)، ٣٣٢-٣٤٤؛ والمرجع السابق، "Qawā'id as a Genre of Legal Literature" (القواعد باعتبارها أحد أنواع الأدبيات الشرعية)، في مؤلّف لبرنارد ج. وايس *Studies in Islamic Legal Theory* (دراسات في علم أصول الفقه الإسلامي) (لايدن، برل، ٢٠٠٢)، ٣٦٥-٣٨٤؛ و[تقي الدين أحمد بن تيمية]، القواعد الفقهية الخمسة الكبرى والقواعد المندرجة تحتها: جمع ودراسة من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، إسماعيل بن حسن بن محمّد علوان (محرر) (الرياض: دار ابن الجوزي، ٢٠٠٠)؛ وأحمد بن الشيخ أحمد الزرقا (محرر) مصطفى الزرقا، شرح القواعد الفقهية (دمشق: دار القلم، ١٩٩٨).

## ورقات طابئة

### القاعدة الأولى: الأمور بمقاصدها

تولي هذه القاعدة تشديداً على النية والقصد. فالأعمال والنشاطات لا تؤدى من أجل ذاتها استقلالاً؛ ولا يكفي أن تكون مجرد قالبٍ حركي. بل يجب أن يكون للأعمال وجهة وقصد، وأن تؤدى بطريقة تتحقق بها على أرجح تقدير العلل والمقاصد التي من ورائها. وكما ذكرنا آنفاً، إن عبارة هذه القاعدة مستقاة من حديث: «إنما الأعمال بالنيّات...». ولكن عبارة القاعدة أوسع؛ إذ (الأمور) تشمل الأفعال الشخصية المبنية على نية، غير أنّها تتضمن أيضاً عموم النشاطات والمؤسسات والخطط الإجرائية وما شابهها، التي لا تنبني على نيّات، بل تنبني على مقاصد؛ وكلمة (مقاصد) في اللغة العربية تنطبق على النيّات، وأيضاً الأهداف والغايات كتلك المتعلقة بالنشاطات العامة والمؤسسات والخطط الإجرائية (السياسات).

تؤكد القاعدة أهميّة النيّات في تلك الأفعال الإنسانية التي تتطلبها وتقتضيها. وهذا ما يستدعي إلى الذاكرة على الفور العبادات لأنّها لا تصحّ بغير نيّات صحيحة. أمّا العادات، في المقابل، ففعلها صحيح بدون نية، ولكنّ النية الصالحة عند القيام بها يمكن أن تحوّلها إلى أفعال أخلاقية وحتى إلى عبادات. إنّ السلوك المعتاد مثل الأكل والشرب والنوم يعدّ حياديّاً من الناحية الأخلاقية ولكنه من الممكن أن يصبح سلوكاً أخلاقياً مروراً إذا مورس بنيّات سديدة مناسبة. فمثلاً الراحة حيادية من الناحية الأخلاقية، إلا أنه لو أُخذ قسط من الراحة بنية تجديد النشاط لكسب العيش وإعالة الأسرة، فإنّ هذه الراحة تنقلب إلى فعلٍ أخلاقي. وإنّ إدارة عمل تجاري شرعي أمرٌ حياديٌّ من الناحية الأخلاقية، ولكنّه لو مورس بباطل المساهمة في دعم غاية إيمانية حسنة، فإنّه يصبح عملاً تعبدياً. وإنّ للنيّات السيئة التأثير المعاكس؛ فمثلاً زيارة مكة والمدينة عملٌ محمود، غير أنّ النية في الذهاب إلى هناك من أجل التسوّل أو السرقة تُحيل العمل الذي ظاهره

## الإسلام حياة ومقاصد

حميداً إلى عملٍ مستنكر. بعض الأفعال تكون ملتبسة ولا يمكن الحكم عليها إلا بالبواعث التي تكمن وراءها. يقول النبي ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»<sup>(٣٦)</sup>. يستعمل الحديث فعل (تشبه) بدل فعل ذي صلة من الجذر نفسه ولكن مع اختلاف بالنطق وهو (تشابه)؛ حيث يؤكد فعل (تشبه) أهمية الباعث النفسي، خصوصاً الحاجة إلى التشبه بجماعة وليس التشبه بفرد بعينه، وذلك لكي يكون مقبولاً في أعينهم؛ وهو ما يعكس عدم احترام للذات، وشعوراً بالنقص، وحسّاً مضطرباً بالهوية.

ومن الجدير بالذكر كما لاحظ العلماء، أن الحديث لم يستعمل الفعل بصيغة (تشابه) لأنّ المعنى يتغيّر من الأساس. فمن شأن فعل (تشابه) أن يدلّ على أنّ مجرد القيام بمشابهة الآخرين غير جائز، وهو تفسير خاطئ يعطيه بعض المسلمين للحديث. وبتفادي استعمال فعل (تشابه)، يدلّ الحديث على أنّه لا ضيرَ في مجرد مشابهة المسلم للآخرين طالما لا يصاحب ذلك وجود الصفات الباطنية السلبية التي يدلّ عليها فعل (تشبه). ولو أنّ مسلماً دعاه إحساس بالنقص إلى أن يلبس ثياب قوم آخرين ويتشبه بعاداتهم، فإنّ ذلك مكروه. والأمر على خلاف ذلك تماماً فيما لو أنّه لبس الثياب نفسها مع احترامه وتقديره لذاته وبنية أن يكون فرداً فعّالاً في المجتمع.

في أغلب النشاطات والالتزامات الإنسانية العنصر الضروري هو العلل والمقاصد وليس النيات. ولدى التطبيق المباشر لقاعدة: «الأمر بمقاصدها» على الأفعال التي لا تنبني على النية، فإنّها تؤكّد أهمية العلل والأهداف النهائية، وحتى العواقب والتبعات والمآلات غير المتعمّدة. فيجب الحكم على الأفعال بالمقاصد التي ابتغى تحقيقها من ورائها. ومع ذلك، فإنّ أي فعل مهما حسنت نيته سيقصّر

٣٦ سنن أبي داود (بيروت: دار المعرفة، ط ١، ٢٠٠١)، ٢/٤/٥٨، رقم: ٤٠٣١؛ وأحمد بن حنبل في (الورع) (١٩٩١)، ١/١٧٨. وروى الترمذي الحديث بلفظ مختلف قليلاً: «ليس ممّا من تشبه بقوم غيرنا»، ٢/٦٨٦، رقم: ٢٩١١.



## ورقات طابئة

عَمَّا ينبغي أن يكون عليه إن لم يُنْفَذ بتهامه أو أخفق في تحقيق مقصده لسبب ما؛ فالأعمال تولد ميتة حين تُنْفَذ على هيئة شكليات مجردة.

وكما رأينا، فإنَّ النِّيَّات الصالحة تقلب الأعمال الفردية الدنيوية إلى أفعال أخلاقية تعبدية. وبطريقة مشابهة، قد تبدو الأعمال والنشاطات ذات قيمة ضئيلة، ولكنها تنال أهمية هائلة إذا ما وُجِّهت إلى غايات نافعة. بعض أنواع اللهو البسيط مثل حفلات البولنغ واللقاءات غير الرسمية لمشاهدة أحداث رياضية ربما عُدَّت عابثة في بيئات إسلامية تقليدية معينة، إلا أنَّها تشكّل في المجتمع المسلم الأمريكي اليوم أنواع تسلية إيجابية بديلة. وإنَّ قاعدة «الأمر بمقاصدها» لا تعني بأنَّ الغايات الحسنة تبرر الوسائل السيئة. ووفقاً للشرع الإسلامي يجب أن تكون الوسيلة والغاية كلتاهما شرعية؛ غير أنَّها تُؤكِّد أن الوسائل المحمودة ليست محمودة بنفسها ولذاتها، إذ يتعيَّن توجيهها بوعي نحو مقاصدها.

ويذكر ابن تيمية أنَّ نطاق هذه القاعدة يشمل التكليف الذي يتحمّله الأشخاص والجماعات بخصوص احتمال حصول العواقب غير المقصودة للأفعال الضارة حين تكون هذه العواقب قابلة لتنبؤ حدوثها ويمكن تفاديها. فقد كان للصحابي سُمرة بن جندب ولد بدين لم يكن يسمع نصحه في أن يعتدل في الأكل. وقد نبّهه النبي ﷺ إلى أنه إن لم يضبط ولده عادته في الأكل ومات بسبب ذلك، فيكون كقاتل نفسه<sup>(٣٧)</sup>.

ولقد قدّم صلح الحديبية الذي أبرمه النبي ﷺ مع مشركي مكّة في السنة التاسعة عشرة من بعثته مثلاً مفيداً يوضّح كيف أنه لا يمكن تقييم الأمور بالكامل إلا عندما تكون في سياق مقاصدها ونتائجها. وإنَّ السابقة التي أصبحت مثلاً يُحتذى بهذه المعاهدة تتباين بحدّة مع المأساة الإنسانية المشتركة بين صراعات مسلّحة كثيرة حيث يصبح التصلّب والعناد غايتين في حدّ ذاتهما، ويطغيان على

٣٧ ابن تيمية، القواعد الفقهية، ١٢٢.

## الإسلام حياة ومقاصد

العقل والسلام والحفاظ على الصالح العام.

وقد بدا صلح الحديبية للوهلة الأولى وكأنه هزيمة للمسلمين ونكسة عويص فهمها بالنسبة إلى قضيتهم، ولكن سرعان ما أسفرت نتيجة هذا الصلح عن مقصد النبي ﷺ وأظهرت هذه النتيجة أنّ المعاهدة كانت أحد أعظم إنجازاته ﷺ. ففي وقت الصلح كان مشركو مكة قد أصبحوا ضعيفي الجانب، بينما كان النبي ﷺ في حالة من القوة منقطعة النظير؛ وكان من الممكن بسهولة أن يهزم أهل مكة لو دارت حربٌ بينهم. غير أنه بدل ذلك أبرم معهم معاهدة سلام مدتها عشر سنوات، في حين أصرّ أهل مكة أن يضعوا في المعاهدة لهجة قليلة الاحترام وتنازلات مهينة. وقد جاء قبول النبي ﷺ للمعاهدة بالنسبة إلى كثير من أصحابه كصاعقة كبيرة، وتلقّوها على أنّها إهانة لا تُحتمل للنبي ﷺ وللإسلام، فكانت امتحاناً شديداً لإيمانهم. ولكن القرآن الكريم يصرّح بأنّ المعاهدة كانت فتحاً مبيناً (الفتح، ١). ثمّ جاء رجل من أصحاب النبي ﷺ وسأله: «يا رسول الله، أو فتح هو؟» فقال ﷺ: «إي والذي نفسي بيده إنه لفتح».

إنّ صلح الحديبية كان قد خلق جوّاً من المصالحة وحرّر جميع القبائل من التحالفات القبلية السابقة، وأصبح العرب في ذلك الحين أحراراً ليصغي الفرد منهم إلى رسالة النبي ﷺ وتقويم موقفه الشخصي تجاهها دون خطر انتهاك الولاء للقرابة والنسب. ومنحت المعاهدة أيضاً المسلمين الوصول إلى مكة، الأمر الذي أعطى دينهم في أعين العرب شرعيةً أكبر. وخلال بضعة أشهر كشفت نتائج الصلح عن حكمة قرار النبي ﷺ ونفاذ بصيرته وبعد نظره. وقد أسس هذا الصلح قبلة سلام إسلامية في الجزيرة العربية، وابتدأ نهوض الإسلام المتألق الباهر. وقد كتب الإمام الزهري أحد مشايخ الإمام مالك:

فما فتح في الإسلام فتح قبل الحديبية كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب

## ورقات طابئة

أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنيتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر<sup>(٣٨)</sup>.

تشكّل قاعدة «الأمر بمقاصدها» - بقدر أية آلية عملية أخرى - توجيهاً واضحاً بأن يعيش المسلمون الإسلام وفقاً لغايات ومقاصد. فهي تضع مقياساً يجب أن يُعاد به تقويم النشاطات الحالية في المجتمع المسلم، وبه تُنظّم الأعمال والمهام المستقبلية وتُنفذ.

### القاعدة الثانية: اليقين لا يُزال بالشك

تعني هذه القاعدة أن العلم المبني على تجربة صحيحة وبيّنة قوية لا ينبغي أن يُزال باعتبارات أضعف. وهي تجسّد الأصل الوارد في القرآن الكريم في آية: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (الإسراء، ٣٦). وهي أيضاً موضحة في حديث النبي ﷺ: «إذا شك أحدكم في صلاته فلم يدر كم صلى، أثلاثاً أم أربعاً، فليطرح الشك، وليبن على ما استيقن..»<sup>(٣٩)</sup>.

إن قاعدة «اليقين لا يُزال بالشك» تجسّد المبدأ العملي الأول في هذا البحث وهو: «الوثوق بالعقل»؛ كما أنّها تنسجم مع المبدأ العملي الثاني وهو «احترام الاختلاف»؛ وذلك لأنّها تعترف بأولوية الحجج الأقوى على الأضعف. إذ تضع القاعدة مبدأً أساسياً بخصوص كيفية استخدام العقل في إصدار أحكام صحيحة. وهذه القاعدة تشدّد قوة العقل وتحطّم قيود الأوهام والتخرّصات والتخمينات

٣٨ أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مجلّدان (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ١٩٩٤)، ٢/٢٥٠-٢٥١.

٣٩ صحيح مسلم (٢٠٠٥)، ٢٧٣، رقم: ١٢٧٢؛ وموطأ مالك (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٤)، ت: عبد المجيد تركي، ١٣٦، رقم: ١٥١؛ ومسند الإمام أحمد (١٩٩١)، ٤/١٦٥، رقم: ١١٧٨٢.

## الإسلام حياة ومقاصد

التي لا أساس لها. وإنّ عدم العيش بموجب هذه القاعدة من شأنه أن يسيء إلى العقل البشري ومن ثم يؤديه في نهاية المطاف. وفي الأساس تجسّد قاعدة «اليقين لا يُزال بالشك» الإيوان الإسلامي الراسخ بأن الحقيقة، على اختلاف الطرق الموصلة إليها، ليست بتابعة لإرادة اعتبارية أو تصوّرات ذاتية، إذ يجب أن تُدرك بوساطة معايير موضوعية.

وإن قاعدة «اليقين لا يُزال بالشك» معنيّة بالبيّنة الأساسية ودفع التعارض بين الدعاوى المتنازعة أكثر من كونها ذات تعلق بيقين ثابت قطعياً مثل الذي جرى بحثه تحت المبدأ العملي الثاني حول احترام الاختلاف. ويشمل اليقين في هذه القاعدة الدليل القطعي من غير أن ينحصر فيه. فنطاقه في هذه القاعدة أوسع، ويتضمّن الآراء المعقولة التي تستند إلى الثبوت الظنّي أو الظنّ القوي أو الراجح. ولدى تطبيق قاعدة «اليقين لا يُزال بالشك» فإنّها تستلزم احترام القناعات المعقولة والمبنية على أدلة ثابتة وعدم الاستخفاف بها والتغاضي عنها ما لم توجد بيّنة أقوى تُثبت خلافها.

وإنّ من أهمّ تطبيقات هذه القاعدة الاستصحاب، وهو يفيد بأنه يجب اعتبار أن الأصل بقاء الأشياء في الوقت الحاضر على ما كانت عليه في الماضي إلى أن يثبت العكس. وهنا مرة أخرى لا ينطبق (اليقين) فقط على العلم القطعي بل يستوعب مسائل ثبتت بالظنّ أو الظنّ القوي. حتى إذا احتل أن رأياً معقولاً - على سبيل المثال - لا يفيد الجزم، وجب أن يُعامل كما لو أنه يفيد الجزم حتى يثبت العكس بشكل جليّ.

إنّ الشريعة الإسلامية، مثل كثير من النظم الشرعية الأخرى، تؤيّد المبدأ الذي يقضي بأنّ الناس بريئون ما لم تثبت إدانتهم. وإن استصحاب البراءة الأصلية (افتراض براءة المتهم) - عند المسلمين - نتيجة طبيعية تنفرع عن قاعدة «اليقين لا يُزال بالشك». وبتحديد أكثر، يعدّ استصحاب البراءة الأصلية، من

## ورقات طابئة

حيث إنّ «الأصل براءة الذمة»، صورة من صور استصحاب الحال (أو الأصل) الذي يندرج تحت القاعدة الكلية. ويفيد الوحي الإسلامي أن البشر قد خلّقوا بحالة براءة فطرية وخير جوهري؛ وإنّ حالة براءتهم الأصلية تجعل الإدانة استثناءً لهذه القاعدة؛ وعلى ذلك يجب افتراض بقاء الناس في الوقت الحاضر على حالتهم السابقة إلى أن يثبت العكس. وبطريقة ماثلة، يجب الذود عن السمعة الحسنة للناس ضد الشائعات ما لم تثبت صحتها بيّنة صحيحة.

هناك تطبيق شائع آخر لقاعدة «اليقين لا يُزال بالشك» هو استصحاب الإباحة الأصلية «الأصل في الأشياء الإباحة»، وهو يقرّر بأنّ الأشياء يجب اعتبار أن الأصل فيها الإباحة ما لم يثبت خلاف ذلك. ويذهب ابن تيمية إلى أنّه لم يُعرف أنّ أحدًا من أئمة الشريعة الإسلامية المتقدّمين قد جادل بشأن صحة أنّ الأصل في الأشياء الإباحة<sup>(٤٠)</sup>. وهناك قاعدة أخرى ذات صلة وثيقة تقرّر بأنّه يجب اعتبار الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يثبت ضررها. وهناك قاعدة مشابهة، وهي «الأصل الطهارة»، تقرّر بأنّ الأصل في الأشياء الطهارة ما لم يثبت العكس<sup>(٤١)</sup>. فهذه القواعد والقواعد الأخرى المتعلقة بها مبنية على اعتقاد إسلامي يقضي بأنّ العالم خلّق من أجل الخلافة الإنسانية؛ ومن ثمّ فهو، وكلُّ ما يحويه على العموم، صالح ومفيد وظاهر. وينتج عن ذلك بصفة طبيعية أن الإباحة هي القاعدة، والتحرير والضرر والنجاسة إنّما هي استثناءات.

تعدّ قاعدة «الأصل في الأشياء الإباحة» حاسمة من أجل النمو الشخصي وتنمية المجتمع بالنسبة إلى المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية. ويُنظر بعض المسلمين إلى الإسلام على أنّه قائمة تحتوي على جملة أوامر ونواهٍ (افعل ولا تفعل)، لا أكثر، وعلى العموم يفوق عدد النواهي المندرجة تحت (لا تفعل) عدد الأوامر

٤٠ ابن تيمية، القواعد الفقهية، ٢١٧.

٤١ علي أحمد الندوي، موسوعة القواعد والضوابط، ٦٠.

## الإسلام حياة ومقاصد

المندرجة تحت (افعل). وحين تتحدّد الهوية الإسلامية من الناحية السلوكية بهذا النمط فإنّها بذلك تربي نفسية يتغلغل فيها الوهن والكبت وأطر معرفية ضيّقة؛ ويجعل التحريم هو الأصل في الإسلام، ويُعطى الدين هيئة يكون فيها المسموح به نزرًا يسيرًا والمحرم كل شيء سواه.

غير أنّ قاعدة (الأصل هو الإباحة) تؤكّد أن العكس هو الصحيح، وأنّ موقف الإسلام الحقيقي في الأساس إنّما هو الإباحة العامّة مع مسلك إيجابي تجاه العالم. على أنّ القاعدة الأساسية التي تقرر الإباحة العامّة لا تعني عدم اعتبار المحرّمات البيّنة في الشريعة الإسلامية ونبذها وراء الظهور؛ بل إنّها تشدّد على أنّ المحرّمات في الإسلام ذات خطورة كبيرة ويجب عدم التهاون بشأنها. ولأنّ المحرّمات كذلك فهي تقتضي أدلة قوية وبراهين مُحكّمة تعتمد على علم صحيح ثابت، لا على الشائعات والقييل والقال أو الشكوك أو الكبت والحواجز النفسية. ويضيف ابن تيمية في كلامه عن قاعدة (الأصل في الأشياء الإباحة) أنّه يكره للمسلم أن يخوض في دقائق ما قد يكون محرّمًا أو غير محرّم، أو تتابه الهواجس فيسأل باستمرار عن ذلك<sup>(٤٢)</sup>.

وبما أن مبدأ (الأصل في الأشياء الإباحة) هو القاعدة الحاكمة، فإن المسلمين غير مطالبين بإثبات جوازها، إنّما يُطالب بالدليل فقط من يقول بالتحريم. وكثير من المسلمين اليوم يأخذ الأمر باستخفاف لدى القول بتحريم أشياء، وعكس ذلك صحيح بالنسبة إلى الصحابة رضي الله عنهم وإلى الأصواتِ المعترية الموثوقة الناطقة باسم الشريعة الإسلامية. وإن الكبت النفسي الذي عندهم - إذ وصلوا إلى الحدّ الذي يمكن وصفهم بأنهم يعانون من حواجز نفسية - جعلهم يرون أشياء محرّمة، ما لم تكن قد عُرِفَتْ جليًّا بأنّها ليست كذلك. وعندما كان يقرّر كبار أئمة الفقه في الماضي بأن أمرًا ما محرّم استنادًا إلى اجتهادهم الشخصي، كانوا يبنون

٤٢ ابن تيمية، القواعد الفقهية، ٢٠٦، ٢١١-٢١٨.

## ورقات طابئة

حجتهم على بيّنة قاطعة، وحتى في هذه الحالة يصدرّون قرارهم بتردد لا يخفى. إنّ النفسية الدينية التي شكّلتها قوائم التزامات لا تخرج عن حدود (افعل) و(لا تفعل) نفسيةً معاقة إلى حدّ كبير. والمسلمون بمثل هذه الشخصية يناضلون لكي لا يشعروا بأنهم غرباء أو غير متلائمين مع المحيط الذي لا يشاركونهم في قائمة (افعل) و(لا تفعل) التي تخصّهم. وأولئك ليس لديهم مشاكل ذات صلة بغير المسلمين فحسب، بل الأمر أبعد من ذلك، فمما يثير السخرية أنهم غالبًا ما تكون لديهم صعوبات أكثر في التعامل مع المسلمين الذين ليسوا على شاكله نهج تفكيرهم. وفي الواقع، إن القوانين والمعايير السلوكية وحتى القوائم المعقولة من الأوامر والنواهي (افعل) و(لا تفعل)، هي جزء من النظام الأخلاقي الإسلامي، غير أنه يجب أن يكون أساسها مبنياً على علم صحيح وقيم جوهرية ومبادئ عامة مثل تلك المركزة بإيجاز في المبادئ العملية الخمسة. وحين تنبني الهوية الإسلامية على قيم جوهرية ومبادئ عامة ضمن معايير السلوك المقبول، فإنها بذلك تُعطي المكنة لتعمل بنفس واثقة في أيّ مكان ومع أيّ إنسان: ولسوف تكفّ عن أن تكون عرضة للأذى من الناحية النفسية عند التنوع والاختلاف، وتصبح متفتحة ومتقبلة لأوسع أطر المعرفة.

إنّ قضايا مثل الاعتراف بالدستور والتصويت وقبول المرأة بوصفها قائدة ومتحدثة في المجتمع ومشاركة فاعلة في المسجد والمحافل العامة الأخرى تعدّ قضايا مثيرة للجدل في بعض المجتمعات. وربما هذه الشؤون ليست ذات إشكال بالنسبة إلى أغلب المسلمين في أمريكا، غير أنّ هناك من الناس من يعتبر أنّها مشكوك في أمرها أو حتى محظورة. وإنّ قاعدة (الأصل في الأشياء الإباحة) توضح بأنّ الإقرار بمثل هذه الأمور لا يحتاج إلى دليل على إباحتها. ويقع دائماً عبء تقديم دليل علمي حاسم - على وجه الحصر - على عاتق أولئك الذين يشكّون في إباحتها. ولكن قبول التراث الدستوري الأمريكي وتمكين المرأة

## الإسلام حياة ومقاصد

وإزالة بقايا النظام التسلسلي الأبوي<sup>(٤٣)</sup>، أمورٌ في الحقيقة لا تتعلق بالإباحة، إنّما هي فروض كفائية في أعلى قائمة الأولويات.

تثير مسألة الجنوسة (gender) والنظام الأبوي همومًا أوسع؛ والمؤسسات التعليمية الإسلامية في الولايات المتحدة وغيرها يجب أن تبتكر الآليات المحتاج إليها من أجل تهيئة عالمات مسلمات قديرات كاملات الأهلية. وإن المسائل المتعلقة بالجنوسة بما فيها المذكورة أعلاه لا ينبغي أن يُعهد بها إلى مرجع من الرجال حصراً؛ وأكثر أهمية من ذلك، لا ينبغي أن يُعهد بأية مسألة إلى الرجال فحسب. يجب أن تحظى النساء المسلمات بفرص متساوية مع نظرائهنّ من الرجال في جميع الشؤون؛ إذ يُعدّ عدم تمكين المرأة المسلمة سبباً رئيساً في تردّي كثير من المجتمعات المسلمة. وإنّ الخطّ من قدر منزلة المرأة له التأثير الموهن نفسه على المجتمعات المسلمة الغربية التي تشجع ذلك، ويجب تصحيحه. والإسلام له تراث غنيّ بنساء بارعات مُجيدات ومشاركات في نواحي الحياة بنشاط. فقد امتازت نساء مسلمات عظيمات في القيادة السياسية والعسكرية، وفي ميادين الشعر والعلم والعمل الخيري والإرشاد الديني، وفي مجالات أخرى. وإن تجديد تراثهنّ ضروري من أجل مستقبل المجتمعات المسلمة في كلّ مكان<sup>(٤٤)</sup>.

وهناك نموذج رائع لامرأة مسلمة كانت قد مُكّنت في نفسها ثمّ مكّنت غيرها في مجتمعها وهي عالمة البارعة المُجيدة التي عاشت في القرن الثاني عشر

٤٣ أستعمل عبارة «النظام الأبوي» بالمعنى الذي عرّفته أساء بارلاس وهو: «سياسة التمييز على أساس الجنس الذي يمنح الذكور ميزة بالتحويل الجنس البيولوجي إلى جنوسة ميسّسة تعطي أولوية للذكر في حين تجعل المرأة مختلفة (غير متساوية)، أو أقلّ شأنًا، أو (الأخر)». أساء بارلاس، *“Believing Women” in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur’an* («نساء مؤمنات» في الإسلام: قراءة قرآنية بعيداً عن التأويلات الذكورية) (أوستن: مطبعة جامعة تكساس، ٢٠٠٢)، ١٢.

٤٤ عمر الفاروق عبد الله، «Famous Women in Islam» (نساء شهيرات في الإسلام)، ١٤ قرص مدمج (CDs) (شيكاجو: مؤسسة النوي، ٢٠٠٤).



## ورقات طابئة

فاطمة بنت محمّد السمرقندي، من بلاد الشام (سورية)<sup>(٥٥)</sup>. كان أبوها فقيهاً حنفياً بارزاً، وكان له دور فعّال في تربية ابنته وتعليمها، فأصبح لها شهرة واسعة بفضل علمها، إذ برعت في الفقه الحنفي وعلوم الحديث. وكان يُنظر إلى فتاواها وروايتها للحديث بفائق الاعتبار. كما أمّتها تفوّقت في تدريس العلوم الإسلامية المختلفة؛ وكانت تتعلّم الرجال والنساء، وكان طلاب العلم يشدّون الرحال إلى سورية لتلقّي العلم وأخذ الإجازات العلمية عنها.

كانت فاطمة السمرقندي مستشارة خاصّة لنور الدين زنكي الذي يُعدّ من أهمّ الحكّام في التاريخ الإسلامي، ومن أهمّ ما يُذكر بشأنه هو تهيئة الأرضية الصالحة لنجاح أحد رجاله - صلاح الدين - بعد بضع سنوات من وفاته. وقد عُرفت فاطمة بأثمتها من حسان النساء، وعُدّت من أجمل نساء عصرها؛ وقد سعى إلى خطبتها ملوك وأمراء ولم يفلحوا، واختارت الزواج من أحد الذين لزموا والدها في طلب العلم، وهو الكاساني الذي يتبوأ اليوم مكانة عالية من بين أئمة الفقهاء مذهب الإمام أبي حنيفة. وقد اختارته بعد تأليفه شرحاً لأحد كتب والدها الفقهية الأساسية. وكان شرح الكاساني المسمّى (بدائع الصنائع) مهرَ زواجها، وعُدّ من أمّهات كتب الفقه الإسلامي. وقليلة هي الكتب - إن وُجد - في الفقه الحنفي التي أظهرت عناية أكبر من هذا الكتاب بالعلل والمقاصد الأساسية للشريعة. ومع أنّ الكاساني كان يحتل مكانة بارزة بين كبار الفقهاء، إلا أنّ فاطمة كانت تصحح له الفتاوى التي يصدرها وتحررها. وقد كان تقديره لها كبيراً جداً لدرجة أنّه كان لا يُمضي الفتاوى التي يصدرها حتى تُمضيها فاطمة أولاً<sup>(٥٦)</sup>.

٥٥ اسم عائلة السمرقندي يعني أنّها في الأصل من سمرقند. وعائلتها سورية لكنّ ينحدر أصلها من وسط آسيا.

٥٦ عمر رضا كحّالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ٥ مجلّدات (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩١)، ٤/٩٤-٩٥؛ وأيضاً: عمر الفاروق عبد الله، "Famous Women in Islam" (نساء شهيرات في الإسلام)، ١٤ قرص مدمّج (CDs) (شيكاغو: مؤسسة النووي، ٢٠٠٤).

القاعدة الثالثة: الضَّرَرُ يُزَالُ

هذه القاعدة هي ذات أهمية مركزية بالنسبة إلى المبدأ العملي الخاص بترتيب الأولويات. وكما ذكرنا سابقاً فإنَّ جوهر الإسلام يتمثل في جَلْبِ المصالح ودرءِ المفاسد. وحيث إنَّ هذه القاعدة تَدَكِّرُ الضرر دون المنفعة أو المصلحة فإنَّ تعبيرها بذلك يشدّد على أولوية إزالة الضرر. وكما سبق ذكره، إنَّ الواجب الإلزامي بدرءِ المفاسد يأخذ أولوية فوق جلب المصالح حين لا يتأتى الجمع بينهما. وإنَّ اعتبارات المفاسد والمصلحة مرتبطة دائماً بعضها ببعض في المنهج الاستدلالي للفقه الإسلامي، ولذلك مع أنَّ ألفاظ قاعدة «الضَّرَرُ يُزَالُ» لم تتضمن ذكر المصلحة أو المنفعة تحديداً، إلا أنَّ معناها مفهومٌ ضمناً. ولا يُثبت إسقاط كلمة «مصلحة» أهميةً اتقاءً للضرر ودرئه فحسب، بل يتضمَّن اقتضاءً أنَّ جَلْبِ مَصَالِحٍ حقيقية باقية لا يتأتى إلا بإزالة الضرر أولاً.

إنَّ الأصل الذي يشكّل أساس هذه القاعدة مشار إليه في آيات قرآنية منها: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْدُوهُنَّ﴾ (البقرة، ٢٣١)؛ و تؤكد آية أخرى: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ﴾ (البقرة، ٢٣٣). ويقول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»<sup>(٤٧)</sup>. ومن تعاليمه قوله ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»<sup>(٤٨)</sup>. هذا وتتفرَّع عن قاعدة (الضرر يُزال) قاعدةٌ أخرى هي: «الضرر لا يُزال بالضرر».

تُلزِم قاعدة (الضرر يُزال) المسلمين - باسم الإسلام - بأنَّ يحدِّدوا الأضرار ثمَّ يقوموا بإزالتها؛ فلا تترك لهم تبريراً لتجاهل الأذى والظلم في أوساطهم أو التساهل بهما. والقاعدة بتشديدها على ضرورة إزالة الضرر تمنح الأولوية لمن تعرَّض للأذى والظلم والاضطهاد. وحق أولئك المتضررين دائماً شرعي،

٤٧ موطأ مالك (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠)، ٢٨٦/١، رقم: ١٤٣٥.

٤٨ سنن أبي داود (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠)، ٦٠٣/٢، رقم: ٣٥٣٧؛ وسنن الترمذي (٢٠٠٠)، ٣٤٣/١، رقم: ١٣١١.

## ورقات طابئة

والضرر الذي يلحق بهم يجب إصلاحه.

في الشريعة النبوية يُعدّ جميع ما هو ضارّ - من أغلظ مظاهر الضرر إلى أخفّها - غير مقبول ويجب إزالته. ويعرّف الفقهاء المسلمون الضرر بالمعنى الواسع، فإذا كان للحكم الشرعي أن يخطئ عند تحديد ما يشكّل ضرراً وما لا يشكّل ضرراً، فينبغي أن يكون الخطأ في جانب اللين والشمولية. ويتعلّق بهذه القاعدة قاعدة أخرى تقول: «الحاجة تُنزّل منزلة الضرورة»؛ ولدى تطبيقها على تعريف الضرر، فإنّها تقتضي بأنّ أخفّ الأضرار - التي يقع إزالتها اصطلاحاً تحت الحاجيات - يُعدّ ضرراً غليظاً، وتقع إزالتها تحت الضروريات. ولذلك فلو كان هناك شكّ بشأن شدّة ضرر ما، فلا يلزم من وقع عليه ذلك الضرر إثبات مدى شدّته فعلياً وإثبات ما إذا كانت إزالته من قبيل الضروريات أو الحاجيات. فلو تعرّضت امرأة لإساءة معاملة من زوجها مثلاً، لا يلزمها أن تثبت أنّ درجة الأذى كانت غليظة وليست خفيفة، إذ إنّها وإن كان الضرر خفيفاً بالفعل، ينبغي أن يُعامل على أنّه غليظ، ومن ثمّ فتجب إزالته.

تشكّل في الوقت الحاضر التحديات الكثيرة التي تواجه المجتمع المسلم الأمريكي أضراراً فعلية أو محتملة، تعدّ إزالتها فرضاً كفائياً حتمياً. ومن الضرر على المجتمع، على سبيل المثال، أن يشيع في المساجد أجواء تتسم بضيق الأفق والتنفير. وكما سبقت الإشارة إليه، تُعدّ الصعوبة التي يكابدها كثير من الأمريكيين المسلمين والمسلمات في إيجاد من يناسبهم من أزواج وزوجات ضرراً غليظاً، كما هو حال الزواج المختل وظيفياً وإساءة المعاملة المنزلية. ومن الضرر على المجتمع أنّ لا توجد حلول للمسلمين من المحرومين الذين تحوّل أوضاعهم دون حصولهم على تعليم جيّد، أو الذين لا يمكنهم الحصول على عمل مناسب يفي بالحاجة، أو الذين يعيشون في مجتمعات تفتقر إلى بنية تحتية اقتصادية مُجدية قابلة للنمو.

## الإسلام حياة ومقاصد

هذا وإنّ لقاعدة (الضرر يُزال) تطبيقاتٍ واضحةً في أعقاب أحداث ١١/٩ المروّعة التي جلبت مخاطر جديدة وأحيت أخرى قديمة. فمن ناحية أولى، تفرض هذه القاعدة على المسلمين أن يقرّوا بصدق بالخطر الحقيقي والراهن للتطرّف وأن يتأكّدوا من بقاء مجتمعاتهم خالية منه. ومن ناحية أخرى، تجعل هذه القاعدة من الواجب على المسلمين الأمريكيين أن يزدادوا من برامج التواصل ويشكّلوا تحالفات أقوى مع أفراد وجماعات مؤازرة من الذين لديهم اهتمامٌ بحقوق الإنسان. كما تقتضي هذه القاعدة أيضًا خطوات استباقية من خلال الانخراط في المجال المدني والإعلامي والوسائل الأخرى لإعطاء المسلمين وجهًا إنسانيًا، وإبراز مساهماتهم في المجتمع الأمريكي إلى الضوء، ومساعدتهم في تفادي الأضرار المحتملة التي تنشأ من عملية التجريد من الصفات الإنسانية والتضليل الإعلامي.

### القاعدة الرابعة: المشقّة تجلب التيسير

من أجل فهم هذه القاعدة من الضروري معرفة أنّ كلمة (المشقّة) المستخدمة هنا والمُعبر عنها باللغة الإنكليزية (hardship) يختلف معناها عن كلمة (العناء) المُعبر عنها باللغة الإنكليزية (difficulty)؛ إذ إنّ العناء ليس سيئًا بالضرورة بخلاف المشقّة؛ فالنجاح في الحياة لا يأتي بدون عناء وجهد. وإنّ التكليف الذي هو أساس الواجب الإسلامي الديني يعني حرفيًا (فرض عبء ثقيل)، لأن أعمال العبادة والواجبات الدينية الأخرى تتطلّب درجة ما من العناء.

ولا يدخل في معنى المشقّة - المشار إليها في هذه القاعدة - العناء المفيد الذي يتطلّبهُ مثلًا التدريب والدراسة والعمل والعبادة. والإسلام يعطي قيمة عالية لبذل الجهد الهادف لكنّه يوجب تخفيف العناء الضارّ. والقاعدة السابقة (الضرر يُزال) تركّز على الإزالة، إذ الضرر يجب إزالته، وليس بالضرورة أن يُستبدل به

## ورقات طابئة

شيءٌ آخر. في حين أن تركيزَ هذه القاعدة مختلفٌ، فالمشقة لا يجب إزالتها فقط، بل يجب جلب شيء أفضل منها بدلاً عنها. وغالبًا ما تتطلب قاعدة المشقة تجلب التيسير) إيجاد بدائل، إذ البدائل هي الوسائل التي يجري بها التيسير. وفي كثير من الأحوال، قد لا يكون مرغوبًا أن يزال بالكامل نوعٌ من السلوك لأنه يسبب مشقة، فربما يكون من الأفضل تعديل هذا السلوك أو إيجاد بدائل عنه، حتى يمكن أداؤه أو أداء شيء أفضل منه بطريقة أسهل وأرضى.

يقول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ (المائدة، ٦)؛ ويقول أيضًا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء، ٢٨). ويقول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»<sup>(٤٩)</sup>؛ ويقول أيضًا: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا»<sup>(٥٠)</sup>؛ وفي حديث ثالث يقول ﷺ: «... فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»<sup>(٥١)</sup>.

بالنسبة إلى بعض المسلمين لا يبدو الإسلام صحيحًا ما لم يكن فيه مشقة، فهم بين الفينة والأخرى يتخذون مواقف متزمتة من غير ضرورة، مما يودي بنفوسهم إلى نقطة تدهور حرجة؛ مع أن النبي ﷺ أوضح أن الدين يسر، والمعاناة من أجل ذات المعاناة غير محمودة ولا ترضي الله تعالى. وقد كان النبي ﷺ يفضّل اختيار الأيسر بين الأمور؛ فقد روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: «ما خيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً»<sup>(٥٢)</sup>؛ وروى عنه ﷺ أنه قال: «إن خير دينكم أيسره»<sup>(٥٣)</sup>.

٤٩ صحيح البخاري، ٢١/١، رقم: ٦٩.

٥٠ صحيح البخاري، ١٣/١، رقم: ٣٩.

٥١ صحيح مسلم (القاهرة: جمعية المكنز الإسلامي، ٢٠٠٠)، ١/٥٤٧-٥٤٨، رقم: ٣٣٢١.

٥٢ صحيح البخاري، ٧٠٠/٢، رقم: ٣٦٠٠؛ وصحيح مسلم (٢٠٠٠)، ٢/٩٩٩، رقم: ٦١٩٣.

٥٣ مسند الإمام أحمد (دمشق: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١)، ٢٥/٢٨٤، رقم: ١٥٩٣٦.

## الإسلام حياة ومقاصد

الاختلاف بين إزالة الضرر (القاعدة السابقة)، والتخفيف (هذه القاعدة) هو في الأساس اختلاف في الدرجة. وكما وُضِّح بخصوص قاعدة «الضرر يُزال»، تحدّد الشريعة الإسلامية الضرر ليشمل أخف الأضرار. وعندما ينطبق التعريف الواسع للضرر على أخف الأضرار، تميل القاعدتان نحو التداخل؛ فهما بأخذهما معاً شاهدتان على تعهّد الإسلام لمعايير معقولة خالية من الضرر ومليئة بالنفع والمصلحة إلى أكبر قدر ممكن.

ويفسّر المثالان الآتيان كيف يمكن أن يتداخل رفع المشقّة بالتخفيف مع إزالة الضرر (أخفه وأشدّه). ويتعلّق المثالان التوضيحيان بترخيص الإسلام للمسلمين أن يفطروا في رمضان الواجب صيامه، إذ لا يلزمهم الصوم في السفر على الرغم من كونه ميسراً في بعض الحالات؛ ففي مثل هذه الحالات يُعدّ الحكم القاضي بأنّ (المشقّة تجلب التيسير) واسعاً إلى أبعد حدّ، ويشمل حتى أقل صور الصعوبة والعناء. فالإسلام يرفع فرضيّة الصوم عن الذين تعوزهم المقدرة عليه بسبب عجز أو مرض أو حمل المرأة أو أعذار مشابهة. وفي حالات أكثر أماناً تُعدّ رخصة الفطر في الصوم الواجب بمنزلة تخفيف المشقّة تحت هذه الأحوال، وفي حالات أكثر حرجاً تكون هذه الرخصة بمنزلة إزالة الضرر (أخفه أو أشدّه)؛ وذلك اعتماداً على درجة الشدّة. وفي الحالة الآتية، كانت الرخصة بالفطر مثلاً واضحاً على إزالة ضرر أعظم، وذلك عندما حاول أحد الصحابة الصوم في شهر رمضان فسقط مغشياً عليه، فأعفاه النبي ﷺ من الصوم تماماً وأمره بإطعام مسكين واحد عن كل يوم من أيام رمضان.

وضع الشرع الإسلامي قواعد لرخص دينية عديدة أخرى من أجل تخفيف المشقّة، والأصول التي تبني عليها هذه الرخص توضح قابلية تكيف الحكم الشرعي ومرورته والأصل الذي يبني عليه التخفيف وهو أنّ المشقّة غير مرغوبة من حيث هي. وفي البرد القارس أو فقد الماء يُرخص للمسلمين الطهارة بالتميم.

## ورقات طابئة

ويُرخص للمسافرين جمع الصلوات، وقد أعطى النبي ﷺ رخصة خاصة لأداء صلاة المغرب والعشاء جمعاً في الليالي الماطرة بغزارة أو عندما تكون الطرقات موحلة بعد المطر، بالرغم من أن كل صلاة يجب أن تقع منفصلة في وقتها المخصوص في الحالة الاعتيادية. ورخص النبي ﷺ بشكل خاص لاثنين من أصحابه في لبس الحرير (مع أن الحرير في غير هذه الحالة محرّم على الرجال)، من أجل تخفيف تهيّجات الجلد. ولا يجوز للرجال المسلمين تحت الظروف العادية لبس الذهب، لكنّ الشريعة الإسلامية جوّزت للرجال حشوّ التجايف السنّية بالذهب وذلك لتخفيف مشقّة استعمال معادن أخرى لم تكن في الماضي حشوات صالحة.

كانت أوقات الصلاة على مدى قرون تُحدّد بحركة الشمس وبعلامات الغسق والليل والفجر في السماء. أمّا اليوم فالمدن ونواحيها مُضاءة في الليل والمباني غالباً تسدّ الأفق. ولذا لم تعد الوسائل التقليدية في تحديد مواقيت الصلاة سهلة؛ وفي بعض الحالات صارت مستحيلة. ولتخفيف هذه المشقّة يعتمد أغلب المسلمين اليوم على جداول مواقيت الصلاة. وحين السفر في الطائرة، فإنّ رخصة الصلاة في مقعد الطائرة مع القيام بإيحاءات خفيفة تدلّ على حركات الصلاة دون الحاجة إلى استقبال القبلة أصبحت معتبرةً على نطاق واسع. ونظرًا لطول السفر بين المدن الكبيرة، أجاز بعض العلماء للمسافرين يوميًا إلى أعمالهم أن يجمعوا الصلوات، على الرغم من أن مسافة ما يقطعونها ربما تكون دون مسافة قصر الصلوات التي حددها الشريعة الإسلامية. وأخيرًا تضع قاعدة المشقّة تجلب التيسير، مقياسًا مهمًا بشكل حاسم للمسلمين الجدد أو المسلمين المنتكبين عن جادة دينهم، بأنّه يُفترض أن يُتوقّع منهم أداء أعلى الفروض الأساسية، وأن يكون تحوّلهم تحولًا تدريجيًا ولطيفًا.

## الإسلام حياة ومقاصد

### القاعدة الخامسة: العادة مُحَكِّمَةٌ

هذه القاعدة هي الموضوع الأساسي لورقة بحثية أصدرتها مؤسسة النوي بعنوان «الإسلام والواجب الثقافي»، توضّح أهمّية الثقافة في الإسلام وواجب المسلمين الضروري في أمريكا في إيجاد ثقافة مُميّزة أصلية محلية خاصة بهم<sup>(٥٤)</sup>. تثبت قاعدة (العادة مُحَكِّمَةٌ) بأنّ الإسلام ليس معتدياً من الناحية الثقافية، بل إنّه يوصي المسلمين بالنظر الواعي في جميع التراثات الثقافية بعقل متفتح، خصوصاً في الأماكن التي يعيشون فيها ويتمون إليها.

وقد حدث مرّة في عهد النبي ﷺ أن جماعة ممن دخلوا الإسلام من أهل الحبشة كانوا يرقصون في مسجده ﷺ ويلعبون بحراهم احتفالاً بعيد إسلامي سنوي، فحاول الصحابي الجليل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن يُثنيهم عن ذلك، ولكنّ النبي ﷺ قال له «دعهم يا عمر، وحثّهم على أن يستمروا»<sup>(٥٥)</sup>؛ وفي رواية للحديث قال لهم ﷺ: «العبوا يا بني أرفدة تعلم اليهود والنصارى أنّ في ديننا فُسحة»<sup>(٥٦)</sup>. وبهذا الموقف ومواقف أخرى مشابهة، وضع النبي ﷺ مثلاً يُحتذى في إقرار الفروق الثقافية، ويبيّن أنّه لا يلزم من دخول الإسلام من غير العرب أن يتخلّوا عن أعرافهم الثقافية من أجل الأعراف الثقافية عند العرب<sup>(٥٧)</sup>. وفي ليلة هجرة النبي ﷺ إلى المدينة حيث بدأ عمله التشريعي، نزلت الآية القرآنية: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف، ١٩٩). وهذه الآية الكريمة تقرّر أصولاً شرعية أساسية عديدة، منها قبول المعايير الثقافية. وإنّ

٥٤ عمر الفاروق عبد الله، "Islam and the Cultural Imperative" (الإسلام والواجب الثقافي): [www.nawawi.org/downloads/article3.pdf](http://www.nawawi.org/downloads/article3.pdf).

٥٥ صحيح البخاري، ٥٦٣/٢، رقم: ٢٩٣٨؛ وصحيح مسلم (٢٠٠٠)، ٣٤٩/١، رقم: ٢١٠٦.

٥٦ مسند الحميدي (دمشق: دار السقا، ١٩٩٦)، ٢٨٦/١، رقم: ٢٥٦.

٥٧ عمر الفاروق عبد الله، "Islam and the Cultural Imperative" (الإسلام والواجب الثقافي)، ٥.



## ورقات طابئة

موقف النبي ﷺ من الهوية العرقية والثقافية يعطي مثلاً يُحتذى لتطبيق هذه الآية؛ فهو ﷺ لم يهدم الثقافات الأصلية المحلية والفرعية التي كانت موجودة في الجزيرة العربية قبل الإسلام<sup>(٥٨)</sup>، بل عاش معها في انسجام، مصححاً ما زاغ منها عن الصواب، ومبطلاً ما كان منها منحلاً فاسداً. وربما كان أفضل مثال على استيعاب النبي ﷺ معايير الثقافات الفرعية في الجزيرة العربية هو نشر القرآن الكريم بالأحرف السبعة التي كانت لهجات العرب الأساسية. والقبائل العربية من أقصى الجزيرة العربية إلى أقصاها كانت تفهم لهجة قريش، قبيلة النبي ﷺ، التي كان يتكلم بها أهل مكة، والتي كانت تمثل المعيار اللغوي الفصح للجميع. وإن استخدام النبي ﷺ للأحرف السبعة لم يكن ضرورياً، إلا أنها كانت لفظة متممة بالاحترام منه ﷺ تجاه القبائل العربية، تقرّ بسلامة الهوية الثقافية لكل قبيلة.

وإن موقف النبي ﷺ تجاه المعايير الثقافية للقبائل العربية والجماعات العرقية الأخرى يمثل سابقةً رائدةً ومقياساً أساسياً في الشرع الإسلامي. ولأن النبي ﷺ أعطى إقراراً واسعاً بالأعراف الثقافية المتنوعة ولم يغيرها إلا عند الضرورة، فقد عدّ أبو يوسف، التلميذ الأول للإمام أبي حنيفة، انفتاح الإسلام على الثقافات الأخرى من سنن النبي ﷺ. وهذا الموقف لأبي يوسف يتباين بشدة مع ما يراه بعض المسلمين اليوم، من أنّ السنة بديلة عن الثقافة (إذ يضيق تعريف السنة عندهم ليقصر على تفاصيل محددة للباس والسلوك الشخصي).

ويعدُّ علم أصول الفقه أنّ المعايير الثقافية السليمة تشكّل مصدرًا مستقلاً ومعتمداً في الفقه الإسلامي. قال السرخسي، الفقيه الحنفي الشهير: «الثابت

٥٨ لم يكن هناك ثقافة عربية ذات وحدة كلية متناغمة في الجزيرة العربية قبل الإسلام، بل كانت على غرار الثقافات حول العالم متنوّعة ومتألّفة من ثقافات فرعية. وكانت المعايير الثقافية للعرب قبل الإسلام وكذلك لهجاتهم تتفاوت بشكل ملحوظ من منطقة إلى أخرى ومن قبيلة إلى أخرى. وقد كان من النتائج المهمة لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة دخوله وأصحابه في المعايير الثقافية للمدينة، التي كانت تختلف كثيراً عن المعايير الثقافية في مكة.

## الإسلام حياة ومقاصد

بالعرف كالثابت بالنص». وقد أدرج التسولي، القاضي والفقير المالكي الشهير، في كتابه «البهجة في شرح التحفة» الآتي: «إنَّ حملَ الناسِ على أعرافهم ومقاصدِهم واجبٌ، والحكمُ عليهم بخلاف ذلك من الزيغ والجور»<sup>(٥٩)</sup>.

كلمة (العادة) كما في قاعدة (العادة مُحَكِّمة) تشير إلى المعايير الثقافية المقبولة؛ وهي في اصطلاح الفقهاء الأصوليين «ما استقرَّ في النفوس بالممارسة وتكرَّر مرَّةً بعد مرَّة في حياة الناس وتلقته الطباع السليمة بالقبول». والإشارة إلى (الطباع السليمة) لها صلة بالاعتقاد الإسلامي القاضي بأنَّ البشر مجبولون على طباع سليمة؛ فهم صالحون بالفطرة، موهوبون معرفةً حدسيةً أساسيةً بالله وبالخير والشر وبالنفع والضرر. وفي الحالة الطبيعية، يتخذ البشر معايير ملائمة لهم وللظروف والأزمات والأمكنة التي يعيشون فيها. وهكذا فالمقصد الأساسي للأعراف الثقافية هو جلب المصالح والمنافع ودرء المفاسد والأضرار إلى أقصى حدٍّ ممكن في بيئات متشعبة بشكل واسع. ومن منظور الشرع الإسلامي، تعتبر طبيعة الثقافات الأصلية الأهلية والفرعية في الأساس ذات ارتباطٍ بما فيه الخير والصالح للجماعات الاجتماعية التي تبنت هذه الثقافات. ولهذا السبب يعدُّ علماء الأصول المسلمون إقرارَ الإسلام بمعايير ثقافية متنوِّعة مثلاً على التزامه الأساسي بإحراز المصالح وأتقاء الأضرار.

تشكّل الأعراف الثقافية جزءاً أساسياً من الهوية ولها سيطرة قويّة على الذين يعتادونها. وإنَّ الشريعة الإسلامية تقرُّ بهذه الحقيقة وتعبّر عنها في صورة قاعدة شرعية هي: (العادة طبيعة ثانية). والعادات متأصلة بعمق في نفوس الناس ما يجعل تمييزها عن السجية الطبيعية من الصعوبة بمكان. ولذلك كان من الأولى والأكثر حكمةً من وجهة نظر الشرع تركُّ العادات بلا تغيير قدر الإمكان. على أنَّ تغيير الأعراف المألوفة بغير ضرورة ضارٍّ، وذلك للارتباط المتين بين العادات

٥٩ عمر الفاروق عبد الله، "Islam and the Cultural Imperative" (الإسلام والواجب الثقافي).

## ورقات طابئة

والاحتياجات المجتمعية. وعندما تكون هناك عادات غير سليمة يجب تغييرها وإلغاؤها، فإنّ هذا العمل يحتاج إلى إستراتيجيات حكيمة وينبغي أن يأخذ وقتًا. وهنا مرة أخرى مثالٌ يضع به النبي ﷺ سابقةً يُحتذى بها، حيث إنّهُ ﷺ قاد أصحابه إلى الالتزام الكامل بالمعايير الإسلامية على نحو تدريجي من خلال نهج استغرق أكثر من عقدين من الزمن.

يواجه بعض المسلمين صلاحية العادات الأهلية بالاستشهاد بالحديث المذكور سابقًا وهو: «من تشبهه بقوم فهو منهم». وكما ذكرنا، فالحديث يُدين التشبه الخانع الدليل بالآخرين، ولا يُدين التفاعل الثقافي السليم، أو مجرد التشابه مع أناس آخرين. وإنّ قيمة هذا التفاعل تتجلى واضحة على وجه الخصوص عندما تكون الأسباب التي تدعو إليه محمودة مثل التعايش مع الآخرين بوثام وانسجام، وبناء جسورٍ من التفاهم والتعاون؛ وعلاوة على ذلك، فإنّه مما لا جدال فيه أنّ النبي ﷺ - في ضوء مجموعة أحاديث صحيحة - كان يلبس في أحيان كثيرة أنواعًا مختلفة من ثياب غير المسلمين أُهديت إليه من بيزنطة واليمن ومناطق أخرى بعيدة.

ولدى عرض هذه القاعدة: (العادة مُحكّمة) على بعض الأمريكيين المسلمين وتعريفهم بها، ينتابهم مخاوف حول أيّ من العادات الأصلية المحلية مقبولة وأيّ منها غير مقبولة. وفي حالات معينة يعكس ردّهم ثقافة المنع والتحفّظ التي تربّوا في بيئتها، وموقف التحريم العام الشائع في تلك الثقافة. وتجدد الملاحظة أيضًا أنّ كلمة (ثقافة) قد حملت معنىً ازدرائيًا بالنسبة إلى كثير من المسلمين في أمريكا، خصوصًا الذين ينتمون إلى عائلات مهاجرة؛ فبالنسبة إليهم كلمة «ثقافة» غالبًا ما ترتبط بطريقة التفكير العتيقة لأبائهم وأمهاتهم، التي قد يعتبرون جوانب معينة منها غير إسلامية، أو تتعارض مع المعايير الأمريكية، أو غير مقبولة بطريقة أخرى.

## الإسلام حياة ومقاصد

قاعدة «العادة مُحَكِّمة» لا يمكن أن تستدعي نَقْضَ ما هو واجب أو محظور بدهاهة واضحة في الشريعة النبوية، والشريعة قاضيةٌ بإنكار العادات الضارة والفسادة قطعياً. بيد أن الشريعة الإسلامية - كما رأينا - تأخذ موقفاً يتسم بالفتح العقلي تجاه العادات على العموم، وعند الحكم على المعايير الثقافية، تفضّل أن تخطئ في جانب اللين، ولا تخطئ في جانب الشدّة. كما أن مبدأ «الأصل الإباحة» ينطبق على العادات الأصلية المحلية؛ فالعادات أيضاً يجب أن يكون الأصل قَبُولها حتى يثبت العكس. وهناك قاعدة ذات صلة تقول: «الأصل في العادات الإباحة». وكما مرّ سابقاً، يقع عبء تقديم الدليل على عدم جواز عرف مألوف معيّن - على وجه الحصر - على كاهل الذين يُنكرونه لا على الذين يُثبتونه. ومع ذلك ففي الحالات المشتبهات، تفضّل الشريعة وقوع الخطأ في جانب اللين؛ والقاعدة التي تنطبق في هذا الشأن هي: «الأصل في العادات العفو»، بمعنى أنّه معفو عنها من المؤاخذه واللوم<sup>(١٠)</sup>.

إنّ استيعاب الإسلام للثقافات الأصلية المحلية جعل من الممكن أن يضع جذوراً أهلية في كلّ مكان ينتشر فيه في قارة أفريقيا وآسيا وأوروبا. فقد تعلّم المسلمون أوزاناً ومقاييس جديدة، وتبنّوا لغات محلية وأثروها؛ واستخدموا بالإضافة إلى التقويم القمريّ التقويمين الشمسي والنجمي لتحديد الفصول السنوية وأحسن الأوقات للزراعة والحصاد؛ وصمّموا أزياء متميّزة من الملابس؛ فالثوب وأنواع أخرى كثيرة من اللباس التي يعتبرها بعض المسلمين اليوم (سنّة) هي إلى حدّ كبير منتجات ثقافية وتختلف كثيراً عن اللباس الذي كان يلبسه النبي ﷺ وأصحابه. ولا تزال النزعة الثقافية للمسلمين وعقريتهم تُرى في أشياء بسيطة مثل أساليب استقبال الضيوف وتحضير الطعام، وفي إنجازات أعظم مثل إنتاج الطرازات الفنية والمعمارية التي تختلف من إقليم إلى آخر.

٦٠ ابن تيمية، القواعد الفقهية، ٢٢٦-٢٢٨.

## ورقات طابئة

وقد شهدت الأساليب المحليّة للتعبير عن الإسلام طوال مرحلة ما قبل الحداثة لدور الإبداع الثقافي الأصيل. فعندما دخل الإسلام إلى إندونيسيا وجد المسلمون أن الأذان الإسلامي العادي لا يخدم المقصد منه دائماً؛ إذ إن الصوت البشري للمؤذن لم يكن بمقدوره أن ينتقل جيداً في الغابات الإندونيسية الكثيفة المطيرة، مما جعل المسلمين يستخدمون عرفاً ثقافياً محلياً للتواصل والإبلاغ عن طريق الطبول (المخاطبة). فقد حافظوا على سنّة الأذان، ولكنهم تمّموا المقصد منه باستخدام طبول ضخمة كانوا يعلّقونها أفقياً خارج المساجد ويقرعونها بقوة لتنبية الناس إلى وقت الصلاة، فيتردد صدى أصوات الطبول العميقة الجوفاء عبر الغابات. وكانت ضربات القرع على الطبول تُشعر بخلو المكان الذي جاء صوتها منه وبال حاجة إلى ملته، فيتوقف الناس عن الأعمال التي يزاولونها ويتوجّهون إلى المسجد للصلاة.

وكان المسلمون في أجزاء كثيرة من إندونيسيا يعملون في حقول الأرز، ويأتون إلى المسجد بأقدام ملوثة بالطين؛ فبدلاً من تذكير مزارعي الأرز على نحو متكرّر بضرورة تنظيف أقدامهم قبل دخول المسجد، قام معماريون محليون بإنشاء جابيات قليلة العمق قبالة مداخل المسجد، بحيث لا يمكن أن يدخل مزارع إلى المسجد قبل أن يخطو من خلالها فيؤدي ذلك إلى نظافة قدميه. إلا أنّ الماء الراكد في الجابيات أو جدّ إمكانيةً خطيرة أن تصبح مواطناً لجذب البعوض والحشرات الأخرى. ولذلك استُخدمت الجابيات أيضاً لتربية سمك الشبوط الذي كان يأكل يرقات الحشرات، والناس يأكلون هذه الأسماك.

وفي الكلام عن خلق ثقافة إسلامية أهلية أصلية في الولايات المتحدة يجب التأكيد أنّ مثل هذه الثقافة لن تكون واحدة، أو وحدة كليّة متناغمة، ولن تنمو بالضرورة بخط متوازٍ مع خطوط الثقافة الغالبة أو أية ثقافة فرعية معيّنة. إنّ الثقافة الأمريكية - مثل الثقافات الإنسانية في أي مكان - ليست كياناً متسقاً

## الإسلام حياة ومقاصد

واحدًا، إنّها هي تركيبة معقّدة من ثقافات متنوّعة كثيرة وثقافات فرعية يتعايش بعضها مع بعض؛ وهي تتكامل وتتنافس بعضها تلقاء بعض ولها الارتباط نفسه مع الثقافة الغالبة للاتجاه السائد. ويعني الإقرار بالثقافة الأمريكية أن يكون المرء منفتح العقل على جميع أساليب التعبير المتعددة للتراث الثقافي الأصلي المحلي. وكما أكدناه سابقًا، لا تجيز قاعدة «العادة مُحكّمة» الرفض القاطع لأي إرث ثقافي أو إرث خاص بثقافة فرعية؛ وإنّما تسمح للأمريكيين المسلمين أن يتبنّوا أو يكتفوا ما يشاؤون مما يجيئون طالما أنّه لا ضرر فيه ولا مفسدة. وينبغي أن يبقى موقفنا منسجمًا مع الموقف الإسلامي الأصلي الذي يقضي بأنّ الأصل في العادات أنّها مباحة ومفيدة وحسنة حتى يثبت العكس؛ وفي حالة الأمور المشتبهات نلجأ إلى القاعدة القاضية بأنّ «الأصل في العادات العفو».

وفي المجتمعات المسلمة التقليدية، كان التكيف الخلاّق مع المعايير الأصلية لأهل البلد واضحًا وأكثر منفعة من مجرد تبني هذه المعايير في أغلب الأحيان. وبطريقة مماثلة لا يحتاج المسلمون الأمريكيون أن يكونوا مقتنعين بتبني المعايير الثقافية الحسنة فقط، بل غالبًا ما يكون من الأفضل تكيفها ببراعة خلاقة حتى يخرجوا بنتائج أجمل وأنفع مما كان موجودًا سابقًا. وفي هذا الشأن، سبق أن تحققت إنجازات جديرة بالملاحظة في مجالات شتى مثل الموسيقى والشعر والكوميديا والصحافة والكتابات الروائية والكتابات الواقعية والأزياء والتصميم الداخلي.

ومن أهمّ التحديات الثقافية أمام المسلمين الأمريكيين القيام بتصميم نماذج محلية بحق لمساجد أمريكية، إذ لا ينبغي أن يكون للمسجد الأمريكي شكل معيّن واحد. وكما أسلفنا، فالثقافة الأمريكية ثقافة متعدّدة ومعقّدة، والمساجد الأمريكية يجب أن تعكس هذا التعدّد والتعقيد، وتلائم المناطق المحليّة والأحياء الخاصة حيثما تُبنى. وقد حصل أن بذلت جماعات من مسلمي أمريكا الشمالية جهودًا محمودة في هذا الاتجاه.

## ورقات طابئة

وعبر التاريخ، كانت المساجد الإسلامية ولا تزال نتاج ثقافات إقليمية وأخرى فرعية، إذ لم يأمر الإسلام بتصميم محدد للمساجد؛ والعنصر المعماري الضروري الوحيد في المسجد أن يكون له مساحة للصلاة. ويعدّ بعض المسلمين القباب والمآذن سمات أساسية للمسجد، بينما لم يكن لمسجد النبي ﷺ قبة أو مآذن خلال أيام حياته. إنّما كانت القباب والمآذن ابتكارات ثقافية جاءت بعد عهد النبوة في العالم الإسلامي. وقد كانت القبة تطوّرًا متأخرًا نسبيًا في فنّ العمارة الإسلامية، وقد ابتكر تصميمها لإتاحة مساحات فسيحة للصلاة؛ إذ كانت هذه المساحات تُشغل بالأعمدة في عصرٍ لم يكن فيه البناؤون ليحصلوا على حديد وعوارض فولاذية. وكانت المآذن أيضًا تطوّرًا متأخرًا، فقد كانت مثالية من أجل القيام برفع الأذان في عصرٍ لم يكن تُعرف فيه مكبرات الصوت. ولكن كان لها أيضًا مقصدٌ أساسيٌّ ثانٍ، فقد كانت في الأصل منارات لهداية القوافل، تمامًا مثل المنارات التي تستخدم لهداية الملاحين. فقد كانت تُضاء مشاعلٌ في أعلى المآذن بعد صلاة العشاء لكي تعطي القوافل البعيدة معلّم هداية. حتى أن اسم المئذنة بالإنكليزية 'minaret' تعكس المهمة الثقافية الأصلية لها، فهي شبيهة بالكلمة العربية (منارة) التي تعني (مكان النار). هذا وإنّ المسلمين في الصين والأندلس وشمال أفريقيا وغربها لم يتخذوا قبابًا ولا مآذن، وذلك لأنها - بشكل جزئي - لا تناسب بيئاتهم.

ينبغي أن يكون المسجد ملائمًا على نحو متناسم مع المحيط الذي هو فيه. وتاريخيًا كان تصميم المساجد وبنائها ومشهدها متناسبًا مع معايير الطراز المعماري المحلي والإقليمي ومناخه وسماته الطبوغرافية. ولا ينبغي أن تصطدم المساجد مع الأذواق والطرازات الأصلية للبلاد؛ كما لا ينبغي أن تبدو غريبة في محيطها أو تعطي انطباعًا أنّها مُستنبتات دخيلة. ويتطلّب ابتكار طرازات المسجد الأمريكي - مثل جميع الإنجازات المعمارية - عبقرية فنيّة وتقنية وثقافية. وفي

## الإسلام حياة ومقاصد

زمن تُعدّ فيه العمارة العلمانية هي المعيار الغالب، يجب أن يكون المسجد في الغرب جذابًا أخاذًا بمقاييس اليوم مع سهولة معرفة هويته بأنّه فضاء مقدّس.

### خاتمة

الإسلام دين بواعث إنسانية وأهداف عملية، وإنّ تطبيقه العملي ينبغي أن يكون منسجمًا مع هذه البواعث والأهداف. ويجب أن يكون الإسلام مُدرّكًا فهمه وتستسيغه العقول، ولكن لكي يكون كذلك يحتاج إلى أتباع فطناء ذوي فهم سليم. وإنّ المبادئ العملية الخمسة التي جرى بحثها في هذه الورقة - الوثوق بالعقل واحترام الاختلاف وتأكيد أهمية فروض الكفاية وترتيب الأولويات والأخذ بالقواعد الكلّية - من شأنها أن تعين على منح هذا الفهم السديد وأن تقدّم توجيهات أساسية من أجل أن نعيش الإسلام بمقصد، أي على نحوٍ هادف. ولا تترك هذه المبادئ العملية أيّ تبرير إضافي للجمود والاختلال الوظيفي والشكليّات المجردة. وهي تقتضي من مجتمعنا أن يرتّب الأولويات ويدرك التحديات التي أمامه، ويجتهد من أجل استيفاء الواجبات الخاصة بالأفراد والواجبات الكفائية التي يحتاج إليها المجتمع بشكل مؤثّر وفعال قدر المستطاع.

الإسلام في أمريكا له جذور تاريخية عميقة تعود على أقل تقدير إلى العهد الاستعماري. وإنّ نموّه الحالي عهده قريب نسبيًا، حيث حدث على مدى القرن العشرين. ولأنّ المجتمع المسلم الأمريكي لا يزال حديث العهد، فهو لم يأخذ شكلاً محددًا أو يتّخذ وجهات نظر ثابتة. وكما بيّنا في البداية: «من أشرقت بدايته أشرقت نهايته»، وأنّ البداية الحسنة تُعدّ بمستقبل مشرق، وأنّ الأساس الراسخ يمكن أن يُبنى عليه صرح ثابت؛ غير أنّ العكس صحيح أيضًا. فمن الأهمية الحرجة بمكان بالنسبة إلى المسلمين الأمريكيين، ونحن نمضي إلى الأمام، أن



## ورقات طابئة

يضعوا قواعد قويّة ثم يقيموا عليها بدايات جديدة. ولا يتأتى تركّ تحديد سبيل المضي قدماً للآخرين أو للصدفة.

في الوقت الحاضر تتنافس جماعات مختلفة ورؤى شتى عن الإسلام من أجل كسب ولاء المجتمع المسلم الأمريكي. وربما يستمر سباق المذاهب الفكرية لسنوات قادمة، ولكن في النهاية سوف تهيمن على الأرجح رؤية محدّدة عن الإسلام. وحالما تتأسس بنجاح رؤية واضحة المعالم عن الإسلام بين المسلمين الأمريكيين سوف يبدأ فصل جديد من تاريخهم. وسوف تصبح تلك الرؤية - حين تتقرّر - الموقف الأساسي الأصل في الولايات المتحدة، وتوجّه الأجيال إلى كيفية فهم المجتمع المسلم نفسه والعالم من حوله. ولسوف يضع هذا المجتمع أولويّاته وأهدافه ويرتبها تلقائيًا. وفي نهاية الأمر سوف تكون رؤية الإسلام، التي تأتي هنا لتسود، العامل المحدّد الأساسي لنجاح الإسلام أو فشله في الولايات المتحدة. وإذا ما كانت رؤية الإسلام، التي في النهاية سوف تهيمن في أمريكا، صحيحةً وحكيمةً، فسوف تمثّل سابقةً قيّمةً ونموذجًا دائمًا لمزيد من التنمية. وأمّا إذا كانت الرؤية قاصرةً فسوف تبقى عقبة مستمرة للأجيال القادمة.

إن جيلنا من المسلمين الأمريكيين سيؤدي على الأرجح دورًا محوريًا في التأسيس الفعّال الأولي للإسلام في الولايات المتحدة. وهذا المقدار من غير المحتمل أن يُحال إلى أولادنا أو أحفادنا؛ إذ إنهم سيكونون إمّا مستفيدين من نجاحنا أو ضحايا إخفاقنا. وإنّ عدم المبالاة تجاه مستقبل المسلمين في أمريكا لا يعدّ إساءةً للمجتمع فقط، بل إن عدم الاكتراث هذا من شأنه أن يؤدي إلى أخطاء تاريخية لا تقبل العلاج.

إنّ الفرض الكفائي الأعلى الذي يقع على عاتق جيلنا في بناء المجتمع المسلم الأمريكي المستقبلي يكمن في تحديد الأولويّات وفروض الكفاية الأساسية التي تهتمّنا، وفي اكتساب الأدوات والوسائل الكفيلة بالوفاء بها. هذا وإنّ المبادئ

## الإسلام حياة ومقاصد

العملية الخمسة من بين أعظم مواردنا، وهي تشكّل مكوّنًا ضروريًا للنجاح في النهاية.

### شكر

إنني ممتن بعمق لجميع من قدّم لي العون في هذه الورقة؛ وأخص بالذكر (حسب الترتيب الهجائي): إبراهيم أبو شريف وإسراء يوسف الدين وأصفه قريشي وآية النوري وأفتاب مالك ورامي نشاشيبي وروحي يونس وزرينا غريوال وسيما ديرانية وطارق مهاجر وعاصم كمال وعدنان أراين وعصام ديرانية وعفّان أراين وعمر قرشي وعمر مظفر وفاخية رشيد وكريم سلامة ومازن أصبّحي والداعية موسى وناديا مهاجر وهشام محمود وهوما رشيد وهينا سودها.







## سلسلة ورقات طبابة رقم ٥ | ٢٠١٢

تقدّم هذه الورقة البحثية إطارًا عمليًا لإنشاء تعبير موثوق معترف لثقافة إسلامية محلية أصليّة. وهذا الإطار العملي مؤلّف من خمسة مبادئ عملية تبثها هذه الورقة بالتفصيل وتشرحها بالأمثلة، وهي: الوثوق بالعقل، واحترام الاختلاف، وتأكيد أهمية فروض الكفاية، وترتيب الأولويات، والأخذ بالقواعد الكلية.

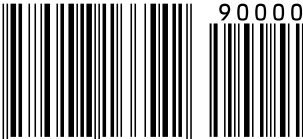
وهذه المبادئ العملية الخمسة مركزية بالنسبة للدين الإسلامي وتجسّد الحكمة العملية وتستوفي الإحساس العالي بالتعاليم النبوية. وتؤكد هذه الورقة حاجة المجتمعات الإسلامية كافة إلى أن تصبح مشاركة بفعالية وبشكل مباشر في تعريف نفسها وبناء مستقبلها أفرادًا وجماعات؛ إذ لا يمكن أن تُترك هذه المهمة للآخرين أو للصدفة. وتقدّم هذه المبادئ العملية الخمسة موردًا نفسيًا لتحديد معالم الطريق للمضي إلى الأمام. وفي حين أن تركيز ورقة «الإسلام حياة ومقاصد» منصبّ على المجتمع المسلم الأمريكي، إلا أنها ملائمة للمسلمين في كل مكان في العالم، خصوصاً لأولئك الذين يعيشون في الغرب.

**عمر الضاروق عبد الله وإيمان-لاندرغراف عالمٌ إسلامي دولي مستقل.** اعتنق الإسلام عام ١٩٧٠، وحصل عام ١٩٧٨ على الدكتوراة بمرتبة الشرف من جامعة شيكاغو. درّس في جامعات ويندسور (كندا)، وقبيل، وميتشغان، وغرناطة (إسبانيا)، وفي جامعة الملك عبد العزيز بجدة؛ وعمل لمدة ١١ سنة في مؤسسة النوري بصفة عالم مقيم، وهو يدرّس حالياً اللغة العربية والفقہ المالكي في معهد دار القاسم الإسلامي (شيكاغو). من ضمن مؤلّفاته: *A Muslim in Victorian America: The Life of Alexander Russell Webb* (مسلم في أمريكا في العصر الفيكتوري: سيرة ألكسندر رَسِل ويب) (مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٦)، و *Malik and Medina: Islamic Legal Reasoning in the Formative Period* (مالك والمدينة: التفكير الفقهي الإسلامي في عهد التشكيل) (برل، ٢٠١٢).

مؤسسة طبابة  
Tabah Foundation  
www.tabahfoundation.org

ISBN 978-9948-16-654-2

90000



9 789948 166542